

الطريق إلى عمانوئيل

بقلم : أسامة العيسى

الفصل الأول

عندما يتقدم الأمير ...!

(1)

اليوم هو : 2001/12/12 ..

كان العام الأول في القرن الجديد ، و الأول في انتفاضة الأقصى ، يستعدّ للرحيل ليفسح المجال أمام عام جديد ، سيكون من أكثر الأعوام دموية في تاريخ فلسطين الحديث .

و بينما كان العالم يتفرّج على جرائم المحتلين ضدّ أبناء الشعب الفلسطيني ، في مشهد غريب و عجيب و مفعج ، ربما لم يشهده التاريخ البشري ، و إن كان مشهداً طبيعياً يتكرّر كلّ يوم في عالم الغابات حيث الغلبة للحيوانات الوحشية ، و يستعد لتوديع عام و استقبال عام آخر سعيداً ، كان أمر آخر يتقلّ طالباً جامعياً شاباً و مقاوم اسمه عاصم ربحان .

اتصل عاصم بأفراد أسرته في صباح ذلك اليوم و تحدّث معهم واحداً واحداً ، و توقف للحديث مع الطفل الصغير (مؤمن) و هو ابن شقيقه الشهيد محمد ، و لا بدّ أن عاصم بذل جهوداً استثنائية كي لا تنزل دموعه تأثراً و هو يعلم بأنه سيستمع لصوت (مؤمن) ، الذي تربطه به علاقة خاصة و وثيقة ، و باقي أفراد العائلة ، للمرة الأخيرة ، و مثلما يليق بمقاوم و كادر مدرب مثل عاصم فإن أيّاً من أفراد عائلته لم يعرف لماذا اتصل عاصم و حرص على الحديث مع الجميع ، و قال لهم إنه يستعد لامتحان موعده غداً .

و بعد أن أنهى عاصم مكالمته كان عليه التقدّم لامتحانه .. !

و قبل ذلك بثلاثة أيام وقف ، مثلما فعل كثيرون غيره في أشهر (انتفاضة الأقصى) ليقرأ وصيته و هو ممسكاً بسلاحه و مرتدياً لباساً عسكرياً و على رأسه خوذة حديدية .

و في تلك الأثناء ، عندما استعدّ عاصم ليتلو وصيته خلف إحدى صخور الريف الفلسطيني ، حضر شريط حياته و حضر الزعر و العصافير و رائحة الأزهار البرية ، حضرت عيون الأطفال الذين يكبرون في غفلة عن بنادق المحتلين ، و حزن عشرات السنين المقيم ، و وجوه الآباء و الأجداد اللاجئين ، و آلاف الأطفال و الشيوخ و النساء و الشباب الذين قضوا في مجازر و لم يعرف العالم حروف أسمائهم ، أو كم منهم سيكون مشاريع كتّاب و فنّانين و علماء و مهندسين و شعراء .

حضرت النسور و الصقور و الحيوانات البرية التي أحبّها عاصم ، و ربما حضرت مشاعر خاصة و حميمة ، ربما استغفر الله عليها ، و ألحت الآن . ربما .. و ربما .. و ربما حضر كلّ شيء .

و ربما الأهم ، حضر ، ما كان يسميهم عاصم (رفقاء الدرب) .

(2)

ولد عاصم يوسف ربحان في قرية (تل) قرب نابلس عام 1981م ، و عندما أنهى دراسته الثانوية التحق بقسم التسويق في كلية الاقتصاد بجامعة النجاح الوطنية ، و اختاره رفاقه (أميراً) للكتلة الإسلامية في كلية الاقتصاد ، و هذه الكتلة تضمّ نشطاء حماس و المتعاطفين معها في الكلية ، و لقب أمير محاكاة لتجارب حركات إسلامية في بلدان أخرى ، و إن كان لا يحمل هذا اللقب في فلسطين نفس الدلالات عند تلك الحركات .

و انتخب في المؤتمر العام لمجلس الطلبة ، و كان هذا الصعود في العمل الطلابي العلنيّ ، يرشّحه لصعود مستقبلي أكبر في العمل العام ، و لكنه اختار وجهة أخرى .

و في أجواء انتفاضة الأقصى التي اندلعت في 2000/9/28 ، بعد زيارة لمجرم الحرب الصهيوني أرئيل شارون ، و كان حينها زعيماً للمعارضة اليمينية في الكيان الصهيوني ، سالت دماء فلسطينية كثيرة ، في شهوة قتل صهيونية كانت تتأجج مع كل قطرة دم عربية فلسطينية تسيل و تطلب المزيد .

و تقدّم المقاومون الفلسطينيون بأشكال مختلفة ، و تميزت تلك الانتفاضة بالعمليات الاستشهادية و التي أصبح يطلق عليها وصف (ظاهرة) و كانت بالفعل كذلك ، و لم تقتصر تلك العمليات على فصائل العمل الوطني الإسلامية و لكن فصائل أخرى مارست ذلك الأسلوب الاستشهادي ، و من الإنصاف القول إن كتائب الشهيد عز الدين القسام ، التي انتمى إليها عاصم ربحان ، دفعت بالنسبة الأكبر من الاستشهاديين ، و أصبح هذا الشكل النضالي الأسلوب الأبرز بالنسبة لتلك الكتائب .

و يظهر تسجيل مصور نادر ، عاصم ربحان مع اثنين من كوادر كتائب القسام هما : ياسر عسيده ، و شقيقه محمد ربحان ، و ثلاثتهم من قرية (تل) ، و يعتقد بأنهم نواة إحدى خلايا كتائب القسام الصلبة ، و يعطي التسجيل فكرة عن تلك الأجواء .

و لا يعرف تاريخ هذا الشريط المصور الذي يظهر في بدايته المقاوم ياسر عسيده خلف ملصقات لشهداء كتائب القسام و جناح حماس السياسي قضاوا اغتيالاً أمثال صلاح دروزة (أبو النور) (اغتيال بتاريخ 2001/7/25) و أيمن أبو الحلاوة (اغتيال بتاريخ 2001/10/22) و جمال سليم و جمال منصور (كان حادث اغتيالهما بتاريخ 2001/7/31م مجزرة حقيقية) و كان للشهيد جمال منصور تأثير كبير على عاصم .

و يقف ياسر عسيده حاملاً بيده اليمنى مصحفاً و باليد الأخرى رشاشاً ، بوجه بشوش و ابتسامة أسرة ، و أمامه على طاولة متواضعة قطع أسلحة أخرى ، ثم يظهر في الكادر محمد ربحان يتلو وصية قال فيها إنه تأثر من قتل الأطفال و الشيوخ و قطع الأشجار و هدم المنازل و أن كل ذلك أدمى قلبه ، و أنه قرّر أن ينقذ عملية استشهادية انتقاماً للمهندس أيمن حلاوة و الشهداء عبد الرحمن حماد و أحمد مرشود و عاطف عبيات ، و جميعهم قضاوا بعمليات اغتيال ، و كذلك انتقاماً لمجازر شارون في المدن الفلسطينية . و يلاحظ هنا أن الشهداء الذين ذكرهم محمد بالإسم ينتمون لفصائل مقاومة مختلفة ، و هو ما يعكس وحدة بين المقاومين ، لا يوازيها شيء لدى السياسيين .. !

و تمنى ، محمد ، أن تستحيل كل قطرة من دمه إلى (نار تحرق الصهيانية) . و طلب من شعبه الاستمرار في المقاومة و الوفاء لدماء الشهداء و ختم وصيته بتوقيعه (الشهيد الحيّ محمد ربحان) من كتائب القسام .

ثم يظهر عاصم ربحان في الشريط و هو يتلو آيات من القرآن الكريم ، تحيط برأسه عصبة خضراء مكتوب عليها (كتائب الشهيد عز الدين القسام) و هو يرتجل وصية ودّع فيها أهله و أصدقاءه و أبناء قريته و وقع بالشهيد الحيّ عاصم ربحان .

ثم يظهر ياسر عسيده جالساً و هو يتلو آيات قرآنية و على جانبيه محمد و عاصم ، يقفان وقفة عسكرية و كل منهما قابض على سلاحه ثم يتحوّل المشهد الجاد إلى مشاهد مرحة جداً لهم و هم يتبادلون النكات و يتقاسمون كسرات الخبز و يشربون الشاي ، و يتفاخر ياسر بلحيته و يطلب ، مازحاً ، رأيهما فيها . و يقول له محمد ربحان مما حكا :

-سيقصونها لك .. !

و ربما لا تختلف هذه المشاهد عن أية مشاهد أخرى لشباب أصدقاء يمضون أوقاتاً ممتعة مع بعضهم البعض . و يمكن الإشارة هنا إلى أن هذا ، ربما ، يحمل رداً على مزاعم تتطلق من هنا و هناك تنعت الاستشهاديين بأنهم مجموعة من المحيطين أو اليائسين .

و هذا النعت كان مع أمور أخرى ، من نخب ثقافية و أكاديمية و وطنية عربية و إسلامية ، يشكل موقفاً من هذه النخب فيه قصوراً شديداً عن فهم ظاهرة الاستشهاديين ، و فيه كثيرٌ من ظلم فادح لمجريات الصراع الفلسطيني و العربي مع الكيان الصهيوني .

و في نفس الجو المرح يقول ياسر عسيده و الابتسامة لا تفارق شفثيه : (شعبنا يحب الحياة ، و لكن أية حياة ؟ ، الحياة الحقيقية و ليس حياة الدّل و المهانة ، و في سعينا للشهادة ، فنحن نسعى للحياة الحقيقية) . و لم يكن ذلك غريباً من مقاوم مثل ياسر ، كان بشخصيته المرحبة المحبة للحياة يجتهد لجعل الحياة محتملة لعائلته و أبناء بلدته و رفاقه في السجن أثناء فترات اعتقاله لدى السلطة الفلسطينية مع آخرين مثل محمد ربحان و نصر الدين عسيده و جميعهم اتهموا بقتل اثنين من حراس مستوطنة (يتصهار) عام 1998م و تم اعتقالهم لدى تلك السلطة بناءً على مطالب من الاحتلال .

(3)

كان من الطبيعي أن تكون الخلية التي انتمى إليها عاصم ، في دائرة ملاحقة و رصد أجهزة مخابرات الاحتلال لها ، التي تمكنت من توجيه ضربة قوية لها بنجاحها باستهداف ياسر عسيبة يوم 2001/11/1م.

و قبل ذلك بيوم واحد ، كانت قوات الاحتلال تتجح باغتيال ستة من الفلسطينيين ، منهم الكادر في كتائب القسام جميل جاد الله (22 عاماً) ، الذي اغتالته الطائرات الصهيونية بقصف منزل جدته في مدينة الخليل بصاروخين حوّلَا جسده إلى أشلاء، و في الوقت ذاته اغتالت قوات الاحتلال في طولكرم التاجر المحسوب على حركة حماس عبد الله الجاروشي (40 عاماً) بإطلاق النار عليه من الدبابات الاحتلالية ، و تمكنت وحدة صهيونية خاصة من قتل الشابين محمد مروح تايه غنّام (24 عاماً) و ربيع محمد سعيد غنّام (21 عاماً) و كلاهما من كتائب شهداء الأقصى في بلدة (جبع) قرب جنين .

و تسللت قوات صهيونية خاصة تحت قصف مدفعي كثيف إلى محيط حاجز للأمن الفلسطيني جنوب غرب (قلقيلية) و أطلقت الرصاص على أفراد الموقع مما أدى إلى استشهاد النقيب محمد جميل و النقيب رائد الأخرس و أصيب زميل ثالث لهما هو محمد عبد الفتاح جابر بجروح متوسطة .

في مثل هذه الظروف ، و بعد أقل من 24 ساعة على اغتيال هؤلاء الستة كان الجنرال شارون الذي تولى رئاسة الوزراء خلفاً للجنرال باراك يعلن أمام منتقديه من أعضاء حزبه في "تل أبيب" الذين اتهموه بالتراخي في قمع الانتفاضة أن عمليات الاغتيال ستواصل .

و كان شارون يفخر بأن مروحياته انتهت من تصفية اثنين من أخطر المطلوبين كان أحدهما الشهيد ياسر عسيبة و الثاني الشهيد فهمي أبو عيشة . كان الاثنان طلبا سيارة عمومي من أحد مكاتب التكتسيات في طولكرم لتقلهما إلى نابلس ، حسب المصادر الفلسطينية ، أو إلى داخل الخط الأخضر لتنفيذ عملية استشهادية حسب المصادر الصهيونية .

و عندما وصلت المعلومات للمخابرات الصهيونية حول السيارة و راكبيها جهّزت (حملة عسكرية) للقضاء على من فيها ، و بالقرب من سهل عنبّا على طريق طولكرم-عنبّا ، أطلقت مروحيات صهيونية ثلاثة صواريخ باتجاه السيارة ، أصاب الأول مقعّماتها و الثاني مؤخرة السيارة و الثالث وسطها ، و تمكّن سائق السيارة و أحد راكبيها من الفرار فلاحقتهما المروحيات الصهيونية بإطلاق النار من العيارات الثقيلة باتجاههما فاستشهد أحدهم ، و أصيب السائق عبد الكريم الصبّاح بينما كانت فرق الكوماندوز الصهيونية تحيط بالمنطقة .

و حسب المصادر الفلسطينية فإن خمس مروحيات صهيونية شاركت في العملية بالإضافة إلى وحدات أخرى من الدبابات استقدمت من مستوطنة (عناّب) المقامة على أراضي قرية (رامين) و أيضاً من مستوطنة (بيت حيفر) المقامة على أراضي ضاحية شويكة و عزّز كلّ ذلك بوحدات من المشاة . و كان الحشد العسكري الصهيوني مثاراً لتعليقات مختلفة ، منها ما قاله محافظ طولكرم الفلسطيني و هو رجلٌ عسكري سابق (العملية العسكرية مخزية ، و يمكن أن تخصص لمواجهة جيش مدجج بالأسلحة و المدرعات) .

و كان هناك من الفلسطينيين من أكّد بأن قوات الاحتلال بالقوة التي حضرت إلى المنطقة كان بإمكانها اعتقال من في السيارة و لكنها فضلت تصفيتهم ، و اعترفت قوات الاحتلال بالعملية و بإطلاق ثلاثة صواريخ على السيارة .

من الصعب الحديث عن وجهة ياسر عسيبة و رفيقه ، و لكن المؤكّد بأن وقوع الاثنتين و هما من كوادر كتائب القسام المطاردين ، تحت بصر مخابرات الاحتلال في عملية لا شك أن للعملاء كان لهم دور فيها ، شكّل صيداً ثميناً للمحتلين و لشارون الذي تفاخر أمام اجتماع حزبه في "تل أبيب" باستمرار عمليات الاغتيال .

و رغم أن العديد من كوادر كتائب القسام كانوا خلال انتفاضة الأقصى قضوا اغتيالاً إلا أن اغتيال عسيبة و أبو عيشة و بتلك الطريقة الوحشية أشعل الغضب من جديد ، الذي لم يكن في الواقع قد هدأ . و كان الكثيرون من أبناء الشعب الفلسطيني ، يدركون أن اغتيال ياسر عسيبة ، الذي نقد العديد من العمليات الفدائية خصوصاً ضد المستوطنين ، و رفيقه أبو عيشة ، هي خسارة .. و خسارة كبيرة لكادر متعلم و مخلص و جريء .

و أصدرت حركة حماس بياناً حول حادث الاغتيال لاحظت فيه أن "الصهاينة قتلة الأنبياء الذين كلما عاهدوا عهداً نقضه فريق منهم يعيشون في الأرض فساداً يقتلون الأطفال و يهدمون البيوت و يحرقون

الفنادق و المزارع و يعيدون احتلال مدننا و قرانا و مخيماتنا و ذلك كله على مرأى و مسمع ما يسمى بالعالم الحر" .

و في إشارة إلى حادث 11 أيلول الشهير في أمريكا استأنف البيان : "... ذلك العالم الذي وقف باكياً مستكراً مستهجنًا ما جرى في الولايات المتحدة ... و أما أطفال فلسطين فلا بواكي لهم و أمهات شهدائنا فلا ناصر لهم ، فما حصل في الولايات المتحدة هو إرهاب أما ما ينقذه الصهاينة من مذابح ضد أطفالنا و نسائنا فهو دفاع عن النفس ... فحسبنا الله و نعم الوكيل" .

و أضاف البيان عن معنى عدم التزام الكيان الصهيوني بالاتفاقيات يوماً بعد يوم بثبت أن عدوينا الصهيوني عدو لا يرحم و لا يحترم اتفاقاً و لا يلتزم بمعاهدات ، فعلى الرغم مما يسمى بوقف إطلاق النار فلا زالت الصهيونية طليقة تغتال المجاهدين فلا يكاد يمر يوم إلا و جريمة جديدة ينقذها الصهاينة ابتداءً بترويع أطفالنا و مروراً بارتكاب المجازر كما حصل في قرية بيت ريماء مروراً باغتيال المجاهدين و المقاومين و آخرهم الشهيدان المجاهدان القسامي ياسر عسيبة و المجاهد فهمي أبو عيشة و كما حصل و يحصل في نابلس و الخليل و طولكرم و رفح و بيت لحم ظناً من الإرهابي شارون بأنه قادر على القضاء على انتفاضتنا المباركة بالقمع و الاغتيال و الهدم و التشريد و لكن أتى له ذلك فضربات مجاهدين سنبقى تلاحق الصهاينة أينما كانوا و لن ينعم الصهاينة بالأمن طالما لم ينعم به أطفالنا في نابلس و جنين و الخليل و طولكرم و قلقيلية و رفح و بيت لاهيا .

و أكدت حماس أنها "عقدت العزم على المضيّ قدماً في طريق الجهاد و الاستشهاد ، طريق المقاومة حتى التحرير ، فما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة و طريق المقاومة هي التي وحدت أبناء شعبنا بعد أن فرقنا سنين المفاوضات .. و طريق المقاومة هي التي تصنع العزة للأمة و طريق المقاومة هي التي حررت الجنوب اللبناني" .

و طالب البيان "السلطة الفلسطينية بوقف المفاوضات و اللقاءات الأمنية مع الصهاينة لأن ذلك كله لا يجدي نفعاً مع عدو لا يفهم سوى لغة القوة و قد أثبتت الأيام بأن المفاوضات مع هذا العدو ما هي إلا مضيق للوقت و كما نطالب السلطة الفلسطينية بوقف حملة الاعتقالات و إطلاق سراح المعتقلين على خلفية مقاومة الاحتلال فوحدة صفنا الداخلي هي سر قوتنا و صمودنا و حق المقاومة حق مشروع كفلته كل الأعراف و المواثيق الدولية ، كما و ندعو أبطالنا المجاهدين لأخذ أقصى درجات الحيلة و الحذر فعدونا ليس له عهد و ليس له أمان و لتبقى بنادقكم مشرعة في وجه الاحتلال جاهزة للتصدي لجيش الغزاة في كل حين" .

و في اليوم التالي لاغتيالهما شيعت جماهير غفيرة في مدينة نابلس الشهيدين في موكب كبير افترق عند نقطة معينة ، الشهيد أبو عيشة إلى مثواه الأخير في مسقط رأسه في بلدة (عسكر) ، و الشهيد عسيبة إلى مثواه الأخير إلى قرية (تل) ، حيث وزعت الحلوى على روحه كما طلب في وصية خطها قبل أيام قليلة من استشهادها ، لأنه كان يعرف ، على الأرجح ، بأنه سيستشهد قريباً ، و كان يردد بأن زملاءه في قسم (5) سبقوه إلى الشهادة ، في إشارة إلى زملائه الذين رافقوه في رحلة السجن على يد السلطة الفلسطينية التي اعتقلته و آخرين استجابة لمطالب و شروط صهيونية ، في السنوات الحرجة قبل انتفاضة الأقصى . (و كان أول هؤلاء الشهداء الذين تمكنت المخابرات الصهيونية من الوصول إليه الشهيد إبراهيم بني عودة الذي اغتيل يوم الخميس 2000/11/23م بتفجير السيارة التي كان يستقلها قرب منتزه جمال عبد الناصر في مدينة نابلس ، و لمزيد من التفاصيل ، عن حوادث الاغتيال تلك يمكن الرجوع لكتابي (قصة اغتالات قادة انتفاضة الأقصى) .

و حسب مصادر فلسطينية فإن الشهيد عسيبة المولود عام 1976م انضم لكتائب القسام عام 1998م ، و خطط لعدة عمليات ، و قضى في سجن جنيد الفلسطيني 30 شهراً و أفرج عنه بعد نحو ستة أشهر من اندلاع انتفاضة الأقصى مع آخر دفعة من معتقلي حماس .

و لم يكن من السهل معرفة ما خطط له عسيبة و ما نقده إلا أنه حسب المصادر الصهيونية كان وراء عملية إطلاق نار على سيارة للمستوطنين قرب مستوطنة (يتصهار) قبل ثلاثة أعوام من استشهادها و قتل و أصاب من فيها ، بالإضافة إلى أنه تنسب إليه أعمال أخرى ضد المستوطنين و الجنود .

و خلال سنوات المطاردة الطويلة من قبل مخابرات الاحتلال لعسيبة ، فإنها تمكنت من اعتقال العديد من أفراد مجموعته المقاومة ، و بقاء عسيبة بعيداً عن الاعتقال أو الاغتيال الذي حضر أخيراً ، و في ظروف الجغرافيا الفلسطينية و سيطرة المحتلين على الأرض و السماء ، يعتبر إنجازاً ليس فقط معنوياً ، و لكن (نصراً) جديداً لمخابرات الاحتلال .

و من المؤكد بأن استشهاد ياسر عسيبة ، و إن كان متوقفاً (بالاغتيال كما حدث أو بالاستشهاد كما خطط) ، أثر بشكل كبير على عاصم ربحان و على آخرين في كتائب القسام ، و على مواطنيه و عارفه الذين عرفوه بلحيته الطويلة المميزة التي كان يعتز بها و رفض كل الدعوات لحلقها أو تشذيبها ...!

و يبدو أن حدس رفيقه محمد ربحان صدق عندما قال له :

- سيقصونها لك !!

و تم ذلك بالصواريخ و بحملة عسكرية كبيرة ، كان من المقدر ، أن تجرد مثلها لمحمد ربحان نفسه .

(4)

و لم تمض أيام كثيرة حتى كانت قوات الاحتلال توجّه ضربتها الثانية لما يمكن أن نسميها (خليفة تل) ، و هذه المرة بشكل لا يقلّ بشاعة عن عملية اغتيال ياسر عسيبة و رفيقه .

كان ذلك في فجر الإثنين 2001/11/12 بعد 12 يوماً من تصفية عسيبة عندما جرّدت حكومة الاحتلال قوة أخرى لمواجهة فرد هذه المرة ، و طوّقت قرية (تل) و احتلتها بالكامل و التي كانت تخضع حينها للسيطرة الأمنية الفلسطينية ، و يمكن الإشارة هنا ، و كما أثبتت الأحداث الدموية فيما بعد ، أن الحديث عن (سيطرة أمنية) هو مصطلح إعلامي أكثر منه حقيقة على الأرض .

فجر ذلك اليوم شنت قوات الاحتلال حملة مدامات لمنازل قرية (تل) و نفذت عملية اعتقالات واسعة بين شبان القرية و اعتقلت نحو 40 منهم ، و داهمت أيضاً منزل الشهيد ياسر عسيبة و هددت أهله بهدم المنزل ، و بالتزامن مع ذلك كان الهدف الرئيس من الحملة ينقذ في مكان آخر ، في أحد منازل القرية : منزل محمد ربحان .

كانت قوات الاحتلال طوّقت المنزل و اقتحمته بعد رفض محمد ربحان الاستسلام ، و قامت وحدة خاصة من المحتلين بإطلاق نار كثيف عليه أمام زوجته و طفله (مؤمن) و تركت ربحان ينزف حتى الموت ، و منعت قوات الاحتلال التي تحاصر القرية سيارات الإسعاف من الدخول لنحو سبع ساعات كان محمد ربحان خلالها لحق برفيقه عسيبة ، و نال ما تمناه : الشهادة .

و حسب المصادر الصهيونية فإن محمد ربحان كان مشتركاً مع عسيبة في (جريمة) قتل المستوطنين على طريق (يتصهار) قبل ثلاث سنوات . و باستشهاد محمد ربحان ، تمكّنت المخابرات الصهيونية من توجيه ضربة قوية لخليفة (تل) ، و إن لم تكن قاصمة ، كما ستثبت الأحداث فيما بعد .

و مثلما حدث مع عملية اغتيال عسيبة ، فإن المؤكد أن اغتيال محمد ربحان كان نتيجة لعمل استخباري صهيوني دؤوب مكّتهم من رأس ربحان . و في اليوم التالي : الثلاثاء ، انطلق موكب تشييع جثمان محمد ربحان من مستشفى ريفيديا في نابلس ، إلى ميدان الشهداء ، و سار الموكب على نفس درب موكب تشييع عسيبة و سلك نفس الطريق إلى قرية (تل) حيث ووري الثرى بجانب رفيقه الذي سبقه .

(5)

كان عاصم ربحان يحضّر لعمليته الاستشهادية ، مثلما فعل كثير من رفاقه و من بينهم زملاؤه في جامعة النجاح الوطنية أمثال : هاشم النجار ، حامد أبو حجلة ، جميل ناصر ، مؤيد صلاح الدين ، و غيرهم . و لكل واحد من هؤلاء ، قصة نضال و بطولة ، يجب أن تروى و أتوقف هنا ، كمثال و نموذج عند الشهيد حامد أبو حجلة ابن العائلة الميسورة و المتفوق في دراسته و الناشط البارز في العمل الطلابي ، و الذي كان في سنته الخامسة في كلية الهندسة عندما أقدم بتاريخ 2001/1/1 لينقذ عمليته الاستشهادية في ننانيا المقامة على أراضي مدينة أم خالد العربية ، و أورد هنا وصيته التي كتبها لتعطي فكرة عن تلك الأجواء التي عاشها عاصم ربحان طالباً في جامعة النجاح :

"(إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة ، يُقاتلون في سبيل الله فيقتلون و يُقتلون ، و عداً عليه حقاً) .

الحمد لله رب العالمين ، ناصر المجاهدين و مدلّ اليهود الملاحين ، و الصلاة و السلام على إمام المتقين و قائد المجاهدين ، و على آله و صحبه و من سار على دربه و جاهد جهاده إلى يوم الدين و بعد :

أهلي الأحبة .. بشراكم

ها أنا قد حققت أمنيّتي و أقبلت على الشهادة في سبيل الله بعزيمة المجاهدين و رحلت عن هذه الدنيا الفانية مسرعاً إلى الدار الباقيّة الخالدة في جنات النعيم ، لألقى المصطفى صلى الله عليه و سلم مع النبيين و الصّديقين و الشهداء و الصالحين و لتعلموا يا أهلي بأنني لم أترككم ضيقاً و لا وحشة منكم ، و لكن الشهادة نادتنني بعد أن تمنيتها منذ حين ، كيف لا ألبي هذا النداء و قد جاءني في رمضان شهر الخير شهر الجهاد و الاستشهاد و الأجر و الثواب العظيم .

أمي الغالية :

إن رضا رب العالمين عليّ مرهون برضاك ، و إن أمنيّتي لن تتحقق إلا بفكّ هذا الرهان ، و لن تكتمل أمنيّتي دون صبرك و احتسابك لي عند الله شهيداً مجاهداً في سبيله و إعلاء كلمته أولاً ، و ثأراً لدماء شهداء فلسطين ، و لا تبكي عليّ و زغردي فهذا عرس ابنك الشهيد .

إخواني الأحبة :

كونوا عوناً لأكم و كونوا من الصّابرين المحتسبين ، و اثبتوا و ليشدد بعضكم أزر بعض ، و لتسامحوني إن كنت قد أخطأت في حق أحدكم ، و لتتمسكوا بدين الله و حبله المتين .

أختي العزيزة :

إقبلي ما طلبته منك قبل أن أغادر كم بأيام قليلة إرضاءً لوجه الله الكريم ، و كوني بجانب أمك ، و لتكوني من أخوات عائشة و الخنساء .

يا أبناء عائلتي الكرام :

سامحوني جميعاً ، فأنا إن قصّرت معكم في الدنيا ، فلن أكون من المقصرين معكم يوم القيامة بإذن الله تعالى . فأبشروا من رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن الشهيد يُشَقَّع في سبعين من أهله ، و أسأل الله لكم الهداية و الصّلاح .

وصيتي : وصيتي لكم يا أهلي بأن لا ينوح أحدٌ في زفّتي للجنة ، بل وزّعوا التمر و زغردوا في عرس الشهادة .

و ختاماً أقول لكم إلى اللقاء قريباً بإذن الله في جنة عرضها السماوات و الأرض أعدت للمتقين . و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ابنكم و أخوكم الشهيد الحي : حامد فالح أبو حجلة"

و في مثل هذه الأجواء يثبت الشريط المصورّ أن عاصم مع الاثنين الآخرين : ياسر عسيّدة و محمد ربحان ، كانوا مشاريع استشهاديين منذ وقت مبكر . و بعد استشهاد ياسر عسيّدة كان كثيراً ما يجلس صامتاً متأملاً صورته ، و كذلك كان بعد استشهاد شقيقه محمد ، حيث اعتصم بالصمت و بالهدوء "الذي يسبق العاصفة" .

و إذا كان مقتل رفيقه أثر بشكل كبير عليه ، إلا أنه من الصعب الحديث ، و في غياب مصادر مستقلة موثوقة ، معرفة مدى تأثير ذلك في اختياره لهدفه أو في تسريع تنفيذ عملياته الاستشهادية . و عندما وقف صباح يوم (2001/12/9) في أحد أيام رمضان ، صائماً ، بين الصخور ليقراً وصيته كان يعرف بأنه لا يفصله الكثير من الوقت لينضم (لرفقاء الدرب) .

وقف مرتدياً لباساً عسكرياً و خوذة حديدية حاملاً وصيته في إحدى يديه ، بينما تدلى رشاشه من كتفه ، و خلفه كان رشاش آخر معلقاً بأحد الصخور ، و بدأ وصيته بأيات من القرآن الكريم تحض على الجهاد ، و حمد ربه الذي جعله من فلسطين و جنودها المجاهدين و من الاستشهاديين ، و حيا أهله و أصدقاءه و إخوته المجاهدين و أخواته المجاهدات و طمأنهم بأن النصر قريب .

و قال : إنه يقدّم نفسه (رخيصة في سبيل الله و دفاعاً عن أرض فلسطين الحبيبة و انتقاماً لأخيه المجاهد محمد أبو المؤمن و أخيه ياسر و القائد محمود أبو هنود) .

و خاطب (السّاق) شارون كما وصفه و زمّرتة و حاشيته ، قائلاً : "إن ملاحقتهم للمجاهدين لن تجدي و أنها تزيد المقاومين إصراراً على المقاومة" .

و بعد أن أنهى عاصم آخر كلمات وصيته وقف ممسكاً سلاحه يتفحصه ثم خطر له أن يقول أموراً أخرى ما دامت هذه فرصته الأخيرة ليتحدث مع من سيتركهم ، إلى الأبد ، فقال مرتجلاً (أيها الأخوة أوصيكم بتقوى الله .. أوصيكم بالجهاد في سبيله .. أوصيكم برفع راية الله عز و جل .. أوصيكم بأن تكونوا قابضين على الزناد .. قبضة المجاهد محمود أبو هنود .. و قبضة المجاهد يحي عياش .. أوصيكم بأن تحرسوا هذه الأرض و أن تدافعوا عنها و أن تبدّلوا الرخيص و الغالي لأجلها .. في سبيل الله عز و جل .. أوصيكم إخواني بأن تكونوا مجاهدين لا من المتخاذلين الراكعين) .

و بدا عليه التأثير الشديد و ربما ، خنق دمعته كادت تفرّ من عينيه و هو يتابع بثقة مستحضراً المخزون الديني (إخواني .. أحبّتي .. إخواني .. أحبّتي : أوصيكم بتقوى الله عز و جل فإن هذه الدنيا فانية و أن البقاء عند الله عز و جل في جنة عرضها السماوات و الأرض أعدّها للمؤمنين) .

و تابع بتأثر أيضاً و هو قابض على سلاحه (يا إخواني و يا أحبّتي يا أهل قريّتي .. تل ، الكرام : دافعوا بكلّ ما أوتيتم من قوة عن دينكم و شرفكم و عن أرضكم و عن أرضكم فإن أرضكم هي عرضكم و إن تصونوها ، تصنكم ، و أن تحرسوا عليها ... ، و السلام عليكم و رحمته الله و بركاته) . و كانت تلك آخر كلمات (الأمير) الذي ترك مقاعد الدراسة من أجل هدف أكبر و أعلى .

و بعد ذلك يظهره الشريط المصور من الخلف و هو يتقدّم نحو هدفه بمشية سريعة رياضية قابضاً على رشاشه و ظهرت حافلة ركاب صهيونية كانت في طريقها إلى مستوطنة عمانوئيل .
و ما لم يظهره الشريط المسجل ، عرفه العالم أجمع بعد ساعات ، فعاصم ، يوم (2001/12/12م) ، بعد ثلاثة أيام من تقديمه لوصيته وضع مع رفاق آخرين ، عبوات ناسفة في طريق الحافلة الصهيونية التي تسير على خط رقم (198) المتجهة إلى مستوطنة (عمانوئيل) ، و فجرها عن بعد ، و عندما توقفت الحافلة و بدأ المستوطنون بالنزول ، فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم من الكمين الذي نصبه عاصم لهم ، فقتل منهم 11 و أصيب نحو 40 ، قبل أن ينضم عاصم شهيداً ، إلى من سبقوه من (رفقاء الدرب) .
و حسب رواية صهيونية غير رسمية تم تناقلها بعد عملية عاصم أن القتلى زادوا عن العشرين و عزّر ذلك وجود أكثر من عشر مخازن سلاح وجدت بجانب جثمان عاصم بعد استشهاده ، و كذلك ما روي عن أن عاصم استمر في إطلاق النار حتى بعد وصول سيارات الإسعاف و تعزيزات جنود الاحتلال بعد الكمين الأول ، و لم يتمكن جنود الاحتلال من النيل من عاصم إلا بدهسه ، و لم يحاول عاصم أن يتراجع ، و ربما كان يغطي على انسحاب رفاق له شاركوه في العملية .

(6)

كانت عملية عاصم الاستشهادية التي عرفت إعلامياً باسم (عملية عمانوئيل) واحدة من أهم عمليات المقاومة الفلسطينية التي نفذت خلال انتفاضة الأقصى ، و كانت حافزاً لعملية أخرى هامة هي الأخرى نفذها بعد شهور مقاومون آخرون من كتائب القسام ، ضد حافلة مستوطنة عمانوئيل ، التي أقيمت على أراضي الفلاحين الفلسطينيين عام 1982م بعد عام واحد من ولادة عاصم .
و كانت حكومة الليكود اليمينية الصهيونية اتخذت قرار إقامتها بتاريخ 1981/5/13 ، و تكون وزارة البناء و الإسكان مسؤولة عن إقامتها ، و حسب الباحث خالد عايد في كتابه (الاستعمار الاستيطاني للمناطق العربية المحتلة) فإن قرار إقامتها استند إلى قرارات الحكومة بشأن الاستيطان في كتلة (كرني شمرون) الاستيطانية و في إطار تكثيف الاستيطان و توسيعه في تلك المنطقة .
و تم اختيار الموقع على (جبل الدير) التابع لقرية (جينصافوت) على بعد نحو 14 كلم شرق خط الهدنة عام 1948 ، و تمهيداً لإقامتها قلع المحتلون نحو 2000 شجرة زيتون في شهر أيار 1982م .
و خطط لها لتكون (أكبر مدينة يهودية في السامرة) ، و حسب الصحف العبرية آنذاك فإنها ستكون (أكبر مدينة بنيت في "إسرائيل" في العقود الأخيرة) تتسع لنحو 50 ألف مستوطن ، و لهذا الغرض خطط لها لتبنى وفق مقاييس المدن الحديثة في الغرب و تركيب حاسب إلكتروني لتشغيل شبكتي الكهرباء و الماء و وضع حاسب في كل منزل و تشغيل عربات تعمل بالكهرباء لنقل سكانها مجاناً داخلها .
و رغم هذه الواجهة (الحداثيّة) للمستوطنة التي قصد بها ، باعتقادنا لتكون عامل جذب للمستوطنين ، فإنه تم الاتفاق أن تكون (مدينة دينية) تتبع حزب (إغودات "إسرائيل") ، و للموامة بين (الحداثة) و (التدين) تقرّر أن تجتذب المتدينين المهاجرين من الدول الغربية .
و للقيام بمهمة بناء هذه المستوطنة تأسست شركة بناء برأس مال 35 مليون دولار يملكها يهود أثرياء من دول مختلفة من أبرزهم المليونير اليهودي (زلمان مارغليوت) ، و بدأ العمل على حساب أراضي الفلاحين العرب و افتتح مكتباً للشركة في نيويورك لاجتذاب المهاجرين اليهود و للقيام بأعمال أخرى تخصّ بناء المستوطنة .

و بتاريخ 1982/8/31م دشّن الطريق الرئيس لها في حفل شارك فيه وزير البناء و الإسكان الصهيوني المتشدد (دافيد ليفي) و رجال دين يهود و شخصيات كبيرة داخل الكيان الصهيوني .
و بعد نحو عام بتاريخ 1983/9/26م ، احتفل رسمياً بافتتاح المستوطنة بمشاركة ليفي أيضاً و جمهور زاد عن خمسين ألف شخص ، جاءوا ليحضروا افتتاح المستوطنة التي ضمت آنذاك ثماني مدارس منها ست مدارس دينية و 12 روضة أطفال و قاعتين للرياضة واحدة للذكور و الثانية للإناث ، و بركة مياه خاصة بالطقوس الدينية و مركز تجاري كبير و مركز طبي .
و أعلن المحتلون آنذاك أن عدد الكنيس سيصل ، في مرحلة البناء الأولى إلى 32 كنيسة و عدد المدارس الدينية إلى 12 مدرسة . و لم يخطر ببال المحتلين أولئك بأن طفلاً عمره آنذاك نحو عامين سينقذ عملية بطولية ضدّ ساكني هذه المستوطنة في إثبات جديد لعروبة الأرض التي أقيمت عليها تلك المستوطنة الدينية الحداثيّة !!

(7)

و لم يكن ذلك الطفل سوى عاصم الذي نشأ في بلدة (تل) في ظروف وطنية و دينية حافزة ، و في منزل عرف الكثير من أبنائه السجون الصهيونية ، و يمكن الإشارة إلى أنه كان من جيل شهد الانتفاضة الفلسطينية الكبرى مع انطلاقها عام 1987م ، و التي كان من أبرز ميزات حضور عنصر هام في العمل الوطني و هو حركة حماس ، التي ولدت قوية ، و كان من نتيجة وجودها القوي المعمد بالدماء ميلاد أجيال تأثرت بعنفوانها و منهم عاصم الذي ما إن دخل الجامعة حتى كان من مؤيدي حماس في الحركة الطلابية الفلسطينية في الجامعات و المعاهد ذو وجود قوي و مؤثر .

و من الذين تأثر بهم في الجامعة شاب اسمه مؤيد صلاح الدين الذي عمل عاصم تحت قيادته ، و الملفت للانتباه بأن مؤيد المسؤول في الكتلة الإسلامية ، ذراع حماس الطلابي العلني نفذ عملية استشهادية قبل عملية عاصم بفترة قصيرة ، و ربما كان ذلك عاملاً هاماً و مفصلاً آخر في حياة عاصم .

و حسب سيرة نشرها المركز الفلسطيني للإعلام في موقعه على الإنترنت ، فإن مؤيد صلاح الدين ينحدر من قرية حزما قضاء رام الله ، ولد في مدينة طولكرم عام 1977م حيث قدمت عائلته للسكن فيها ، و هو واحد من بين خمسة أشقاء و ست شقيقات ، التزم منذ نعومة أظفاره في المساجد و كان أحد روادها الدوامين على الصلاة و حلقات العلم ، برزت مواهبه القيادية منذ صغره فكان يدير حلقات الأشبال في المساجد و كان مدرساً لكتاب الله تجويداً و حفظاً و كان يحفظ ما يقارب العشرين جزءاً ، التحق بصفوف حركة المقاومة الإسلامية حماس مع بداية انطلاقة التوأمين حماس و الانتفاضة و كان قائداً ميدانياً و أميراً للأشبال في منطقته ، تلقى تعليمه الابتدائي و الثانوي في مدينة طولكرم و كان من أبرز قيادات الحركة الطلابية الإسلامية في مدارس المدينة .

و الملفت في سيرة مؤيد أنه كان من المتفوقين في دراسته الأكاديمية و كان حريصاً على تنمية ثقافته و مهاراته ، و تم اعتقاله في المرة الأولى و هو في الثانوية العامة الأمر الذي حرّمه من تقديم الامتحانات إلا أنه تابع بعد خروجه من السجن و حصل على معدل 93 % بتفوق .

و بعد ذلك التحق مؤيد بجامعة بيرزيت قسم الهندسة و تم اعتقاله للمرة الثانية بتهمة إيواء و مساعدة المطاردين القسامي حسن سلامة و قضى عشرة شهور داخل سجون الاحتلال ، و بعد خروجه من السجن التحق بجامعة النجاح الوطنية قسم الهندسة المعمارية و كان أحد قياديي الكتلة الإسلامية في الجامعة و كان متفوقاً في دراسته "رغم هموم العمل الدعوي و الطلابي الذي كان يحمله" .

و كان حريصاً على متابعة أمور الأسرى و عائلاتهم و متابعاً لقضاياهم بشكل مستمر حتى يوم استشهاديه ، و عرف (بحسن أخلاقه و روحانيته و التزامه صلاة الفجر خاصة مع الجماعة و حبه و حرصه الشديد على دعوته و إخوانه) .

و بتاريخ 2001/11/8م ، تقدّم مؤيد ، مثملاً سيفعل بعده بفترة قصيرة عاصم ، و نفذ عملية استشهادية على أرض بلدة باقة الشرقية بقيامه بتفجير حزامه الناسف بمجموعة من القوات الخاصة الصهيونية .

و بعد تلك العملية أصدرت كتائب عز الدين القسام بياناً نعت فيه الشهيد و أوضحت ما اعتبر في حينه التباساً رافق العملية ، و أورده هنا كاملاً ، مثملاً فعلت ببيانات لاحقة ، و ذلك لوضع القارئ في صورة تلك الأجواء ، و عدم فرض استنتاجات معينة من قبلي على القارئ :

بيان عسكري صادر عن كتائب الشهيد عز الدين القسام

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم و يخزهم و ينصركم عليهم)

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على قائد المجاهدين و على آله و صحبه أجمعين و بعد :
بفضل الله عز وجل و مثته نقد مجاهدونا الأبطال هجوماً جديداً رداً على جرائم الصهاينة الذين تجبروا في أرضنا و عاثوا فيها فساداً و دمروا مدننا و استأسدوا على العزل ، فبالرغم من الاحتياطات الأمنية الصهيونية ... ترجل فارسنا الجديد و تمكن من اختراق كافة حواجزهم الهشة حاملاً حزامه الناسف قاطعاً عشرات الكيلومترات مشياً على الأقدام متحدياً ظلمة الليل و برده القارص ، مكث عدة ليالي في العراء و في عقر دارهم حتى حان موعد اللقاء المرتقب لقاء الحبيب بأحبائه الشهداء لقاء الشهيد بربه ، فاستلّ سلاحه معلناً بدء جولة جديدة من جولات معارك الانتقام ، هذه المعارك التي لن تنتهي إلا بزوال الاحتلال الظالم بإذن الله و الانتقام لكل الشهداء (الشهيد المهندس أيمن حلاوة ، و الشهيد مرشود ، و حمّاد ، و عبيدات ، و ملوح ، و أبو حجلة ، و الخطيب ، و عكرمة ، و جرادات و من قبلهم القادة منصور ، و سليم ، و صلاح الدين ، و ثابت ، و أبو علي مصطفى و كافة شهداء الشعب الفلسطيني) .

ففي صباح يوم الخميس ضغط المجاهد القسامي البطل :

(مؤيد صلاح الدين - 22 عاماً - من طولكرم)

على زرّ التفجير عندما وصل إلى هدفه المنشود لجنود الاحتلال و ليس كما ادعى جيش الاحتلال ، محوّلًا كلّ قطرة من دمه قذيفة تحرق الصهاينة و قد أسفرت هذه العملية عن مقتل و إصابة العديد منهم كما أكد المجاهدون الذين كانوا على مقربة من المكان ، و تمّت العملية بنجاح فيما عاد بقية المجاهدين إلى قواعدهم سالمين و لله الحمد .

و من هنا نعلنها إلى الجزّار شارون بأن كتائب القسام قد أخذت على عاتقها عهداً بالإجهاد على مائة صهيوني بإذن الله كدفعه أولى رداً على جرائمهم المتواصلة مهما كلف هذا الأمر فقد كانت البداية قتل ضابط في تل و اليوم الأسد القسامي مؤيد للأعداء بالمرصاد و القافلة مستمرة بإذن الله .

فأول الغيث قطرة ثم ينهمر .

و الله أكبر .. و لله الحمد
كتائب الشهيد عز الدين القسام
الخميس 22 شعبان 1422هـ
الموافق 2001/11/8م فلسطين"

و من المفيد الإشارة إلى أن البيان يشير إلى أن العملية جاءت انتقاماً لجرائم المحتلّين باغتيال عددٍ من كوادر حماس مثل جمال منصور و جمال سليم و صلاح الدين دروزة ، و الدكتور ثابت ثابت أمين سر حركة فتح في طولكرم و أبو علي مصطفى أمين عام الجبهة الشعبية و غيرهم ، و ذكر البيان أسماءهم مختزلة لأنه كان يخاطب حينها جمهوراً يعرف هؤلاء و ما حدث معهم جيداً .

و كشف رفاق الشهيد مؤيد عن وصيتين كان تركهما قبل استشهاده ، و هو ما يذكر بما فعله عاصم ربحان ، بوصيتيه التي وثقهما التسجيل بالصوت و الصورة .

الوصية الأولى نشرها رفاق الشهيد باسم "وصية الشهيد الوطنية الأولى" و جاء فيه :

"بسم الله الرحمن الرحيم
و بالله نستعين ..

الحمد لله الذي شرفنا بالجهاد و جعلنا من المجاهدين الذين يدافعون عن حرمة الوطن السليب .

الحمد لله الذي وعدنا بالجنة و بنعيم دائم

إخواني الأحبة أبناء الإسلام أبناء و أحفاد خير البشرية محمد صلى الله عليه و سلم .

بعد أن طفق الكيل و استشرى ظلم اليهود و تقاعس العرب و المسلمون عن نصرة شعبٍ مسلمٍ يذبح أطفاله و نساؤه و شبوخته و يغتال قاداته و علماءه و تستباح مقدساته صار لزاماً على كلّ مسلم أن يقف مع ذاته يقرّر أن الحقّ أحقّ أن يتبع ، فما هذه الحياة إلا لحظة فلتكن في طاعة الله و الجهاد في سبيله ، لنكن كلمة الله هي العليا و كلمة الكفر هي السفلى ... فالحمد لله أكبر و النصر لله .

أما لا تبكي عليّ إذا سقطت ممّداً فالموت ليس يخيفني و مُنّاي أن أستشهد

ابن كتائب القسام
أياد أ.مصعب 10/31

و لا أعرف الظروف التي جعلت الشهيد مؤيد يعيد كتابة وصيته مرة ثانية و التي جاء فيها :

"بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله و كفى و الصلاة و السلام على الحبيب المصطفى محمد صلى الله عليه .

إلى شبان الإسلام إلى جند الله ... سلام من الله عليكم و رحمة الله و بركاته ..

أودعكم على أمل اللقاء في الجنان لأنني أدركت أن الدنيا دار مفرّ و الآخرة دار المقر و علمت أن الجهاد له حلاوة الانتصار و الشهادة ، لذلك أقدمت على قدري و أنا أحمل لديني محبتي لأنه الدين الذي ضحى من أجل نصرته رجالٌ كثيرون منهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر ليلحق بركب المجاهدين في سبيل الله .

أوصيكم إخواني الأحبة أن لا تتطلعوا لدنيا و امضوا للجنان ..."

و من الذين استجابوا لدعوة مؤيد بعدم "التطلع لدنيا" كان عاصم ربحان الذي نفذ عملية بطولية بكلّ المقاييس ، و رغم أن العملية التي نفذها تقع ضمن الأراضي المحتلة في حزيران 1967م و ضد

مستوطنين اغتصبوا أرضاً تعترف (الشرعية الدولية) بأنها فلسطينية ، فإن السلطة الفلسطينية سارعت لاستنكار العملية ، مع عملية أخرى نقّذها استشهاديان قرب مستوطنة غوش قطيف بغزة أسفرت عن استشهادهما و سقوط جرحى من المستوطنين .

و أكدت (بأنها تعمل بشكل متواصل و حثيث على استتباب الأمن و التهدئة ، رغم التصعيد "الإسرائيلي" و عمليات القصف و الاغتيال في الخليل و عنتابا و طولكرم و خان يونس ..) .

و ردّ ناطق رسمي فلسطيني على ما اعتبره (مزاعم) "إسرائيلية" بأن عاصم ربحان كان معتقلاً لدى السلطة و تم الإفراج عنه ، بأنه لم يكن أبداً معتقلاً و لم يدرج اسمه ضمن أية قائمة "إسرائيلية" من المطلوب اعتقالهم من قبل السلطة .

كان الرسميون يريدون غسل أيديهم من العملية ، بالنسبة للرأي العام الفلسطيني شجاعة و بطولة ، و كان الموقف الرسمي هذا يشكل مفارقة غريبة عن مقاومين يقدّمون حياتهم من أجل الوطن و آخرين يقدّمون اعتذاراً عن هذه المقاومة الشرعية .

و الأمر ، بالنسبة لكثير من الفلسطينيين ، لا يتعلق بمفارقة ، بل أيضاً بظلم معنوي فادح ، و لكن ماذا سيهم عاصم من كلّ ذلك : عاش بطلاً و سعد بطلاً تجلّله أكاليل الغار .

الفصل الثاني

لست وحدك

(1)

و لم تنته قصة عاصم ربحان عند ذاك الحد ، و توالى ردود الفعل على عملياته من أطراف مختلفة ، و قدّر لهذا الاهتمام أن يستمر طويلاً و يأخذ أشكالاً مختلفة . و كان من الطبيعي أن يكون لكتائب الشهيد عز الدين القسام التي ينتمي لها "الشهيد" (ردّ فعل) العظيم الاستشهادي القسامي البطل الشهيد عاصم يوسف ربحان ، ابن قرية "تل" البطولة قضاء نابلس منفذ عملية "عمانويل" البطولية و التي تمكّن من خلالها من اختراق الحواجز الصهيونية الأمنية الهشة ، حيث قام بتفجير عبوتين ناسفتين في قافلة صهيونية و فتح بعدها نيران رشاشاته باتجاههم فأجهز على أحد عشر صهيونياً و ترك ما لا يقلّ عن ثلاثين منهم يصابون الموت .

و أشار البيان إلى أن هذه العملية إعلان لكلّ مستوطن أنه "لن تتفهم مجزراتهم و دباباتهم و لن تستطيع أن تقف أمام استشهاديّ باع نفسه رخيصة لله عز و جل" .

و تعهدت كتائب القسام بالاستمرار في النضال في ظلّ العدوان الذي يُشنّ من قبل الاحتلال ضد أبناء الشعب الفلسطيني من هدم للمنازل ، و اغتيلات و تشريد ، و قالت في البيان : "عهداً منا لدموع الأطفال الذين قتل أبائهم ، و عهداً لأهات التكالى الذين هدمت منازلهم ، و عهداً لكلّ أبناء شعبنا المجاهد بأننا لن نقف مكتوفي الأيدي أمام الهجمات الشارونية .. فمن هنا نرسلها من جديد إلى الجزار شارون و زمركه بأن كتائب القسام ستردّ الصاع صاعين بإذن الله ، فالهدم بالدمار ، و الدم بالدماء ، و النار بالنيران ، و المجزرة بالمجازر .. و الأيام بيننا" .

و يمكن تصوّر ردّ فعل العملية في أجهزة الإعلام العبرية و في أوساط المستوطنين من التغطية الإعلامية لما حدث هناك على مشارف تلك المستوطنة حيث لم تصمد سياسة مجرم الحرب الصهيوني أرييل شارون القمعية الذي جاء إلى سدة الحكم على حصان الأمن .

و كان الوقع الأقوى للعملية في أوساط مستوطني عمانويل نفسها ، و نشرت تقارير عن ذلك في عدة صحف من بينها صحيفة الشرق الأوسط اللندنية التي نشرت يوم (2001/12/15م) تقريراً أشارت فيه إلى أن مستوطنة عمانويل تشهد موجة هجرة معاكسة ، إذ بدأ المستوطنون يعودون إلى بيوتهم في "إسرائيل" منذ العملية الاستشهادية التي نقّذها عاصم .

و قالت الصحيفة : "تثير هذه الظاهرة قلقاً بارزاً لدى سلطات الاحتلال ، إذ إن مستوطني هذه المستعمرة هم من اليهود المتدينين المتزمّتين الذين يرتبطون دينياً و عاطفياً بهذه المنطقة و عمانويل ، بالنسبة لهم ، هي المدينة اليهودية التاريخية ، المذكورة في التوراة عدة مرات" .

و نَوّهت إلى أن سلطات الاحتلال "أقامت هذه المستوطنة سنة 1982 . و تقطنها اليوم 600 عائلة (حوالي 4000 نسمة) . و هجرت المستوطنة خلال الانتفاضة 50 عائلة ، لكن إدارتها نظّمت حملة دعائية واسعة بين اليهود المتدينين في مدينة بني باراك "الإسرائيلية" (قرب تل أبيب) ، و تمكنت من إقناع عشرات العائلات بالانتقال إليها ، و التعويض عن العائلات التي هجرتها" .

و أضافت الصحيفة : "لكن الهجوم العسكري الفلسطيني على حافلة الركاب العاملة على خط بني باراك - عمانوئيل ، مساء يوم الأربعاء الماضي و الذي قتل فيه 10 مستوطنين على الأقل و جرح أكثر من 30 آخرين ، يثير نقاشاً داخل المستوطنة حول الحكمة من البقاء فيها خصوصاً أن بين القتلى في الهجوم المذكور عائلة قدمت إلى المستوطنة قبل شهر فقط ضمن الحملة الدعائية الجديدة ، و مستوطنة قدمت إليها قبل أسبوع واحد" .

و ركز بعض الكتاب في الصحافة العبرية على مسألة (الثأر) في عملية عاصم ، و إنها كانت ثأراً لسقوط شقيقه الشهيد محمد ، و قال أحدهم إن أهل قرية تل مثل البدو لا ينسون ثأرهم بسهولة .

(2)

و كان هناك من يتفق مع هذا الرأي ، و لكن من الضفة الأخرى للنهر ، مثل الشيخ حامد البيتاوي رئيس رابطة علماء فلسطين الذي ألقى خطبته في مسجد معزوز المصري في مدينة نابلس يوم 2002/3/8 ، مع اشتداد الهجمة الاحتلالية الشارونية على المواطنين الفلسطينيين و قبل عملية (السور الواقفي) التي ارتكب فيها شارون مجازر عديدة في مدن الضفة بأقل من شهر .

كانت تلك الأيام مشحونة بالحزن و الألم و الشهادة و هذا ما كان يدركه البيتاوي الذي قال في خطبته : "العدو الصهيوني ها هو يشنّ حرباً برية و جوية و بحرية على شعبنا .. يشنّ عدواناً مستمراً يستخدم فيه الطائرات و الدبابات و الصواريخ و يدهم القرى و المخيمات و المدن فيقتل و يغتال و يضرب بدباباته طلاب المدارس كما حصل في مدرسة السيلة الحارثية في جنين و الاعتداء بالمتفجرات كما حصل في مدرسة صور باهر في القدس ، و كما قتل و اغتال جيش الاحتلال زوجة المجاهد حسين أبو كويك و أولادهما الصغار و أطفالاً آخرين ، كما دمّروا قبل أيام مدرسة للمكفوفين في غزة هاشم .. ، و هذه المذابح التي يقتربها العدو الصهيوني و التي تزداد يوماً بعد يوم ، فصيلة شهداء شعبنا في هذا اليوم و حتى هذه الساعة ثلاثون شهيداً نسأل الله تعالى أن يرحم شهداءنا و أن يشفي جرحانا و أن يلطف بشعبنا و أن يردّ كيد الغزاة المحتلين إلى نحورهم يا رب العالمين" .

و أضاف البيتاوي : "أيها الإخوة المرابطون .. ما هو ردنا على هذه الجرائم و على هذا العدوان الذي يرتكبه العدو الصهيوني ؟ أنشكو همنا إلى مجلس الأمن الذي لا يراعي القوانين .. لا و الله .. أنتوسل إلى أمريكا و التي يسمونها ظلماً راعية للسلام .. إن عداوة أمريكا لشعبنا و للإسلام و للمسلمين لا تقلّ عن عداوة اليهود .. اللهم خذ بأمريكا و أعوانها .. اللهم عليك بهم يا خير الناصرين .. لمن نشكو أمرنا ؟؟ أنشكو لمن يملكون أمرهم و يطلقون التصريحات و المبادرات و الاقتراحات و التي هي خنجر في صدر شعبنا ، و الذي يتصل أحدهم من أنه ينتسب إلى الأمة العربية !!!" .

و كان البيتاوي يريد أن يصل بعد مقدمته تلك إلى ما يراه بديلاً لجرائم الاحتلال "لن نشكو (إسرائيل) إلى مجلس الأمن و لا إلى أمريكا و لا إلى غيرهم من الطواغيت إنما نشكو همنا إلى الله عز و جل - إنما أشكو بثي و حزني إلى الله - و نقول حسبنا الله و نعم الوكيل .. حسبنا الله و نعم الوكيل .. نعم هذا ردنا على الجرائم التي يرتكبها الاحتلال في طول البلاد و عرضها هي المقاومة بما نملك من أسلحة بالرشاشات و القنابل اليدوية و العبوات الناسفة و بعمليات جهادية استشهادية .. نعم فإذا كان الاحتلال يملك أسلحة متطورة كالدبابات و الطائرات و الصواريخ و نحن حقيقة لا نملك مثل هذه الأسلحة إلا أننا نملك سلاحاً أقوى من أسلحة الاحتلال ، إنه حقنا في وطننا و إيماننا بالله عز و جل .. ثم إننا نمتلك القنابل البشرية و التي لا يقدر الاحتلال أن يقف أمامها أبداً" .

و كان كثير من أبناء الشعب الفلسطيني يوافقون البيتاوي على رأيه "أنتم تملكون سلاحاً فعالاً قوياً إنها القنابل البشرية .. إنهم المجاهدون الاستشهاديون الذين يتمنطقون بالعبوات الناسفة و يقتحمون مراكز الجيش الصهيوني و المستوطنات و المدن الصهيونية و إليكم بعض الأمثلة على هذه العمليات البطولية و التي جرت في بحر هذا الأسبوع :

العملية الجهادية الاستشهادية التي نفذها ابن بيت لحم في بيت المقدس فقتل و جرح العشرات من الصهاينة حيث اخترق حواجز الأمن الصهيونية و زرع الرعب في قلوبهم و فتت أجسادهم و هذه العملية قام بها نفر من كتائب شهداء الأقصى فألف تحية لهذا المجاهد الاستشهادي البطل .. و عملية ثانية في بحر الأسبوع يوم أن تقدم مجاهد ببندقية قديمة و بـ 25 طلقة فقط قتل عشرة من الجنود و المستوطنين

الصهيانية و جرح الباقين ، فكلّ رصاصة كانت تصيب صهيونياً (و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى) ، و لقد اعترف العدو بأن هذه العملية أثبتت فشل الجيش "الإسرائيلي" .. و عملية أخرى نفذها مجاهد من غزة في وسط "تل أبيب" في الساعة الثانية فجراً فقتل و جرح العشرات و استشهد ، و بالأمر كانت عملية نفذها ابن كتائب أبو علي مصطفى في مستوطنة أرئيل فجرح و قتل العشرات إلا أن العدو يُخفي خسائره ، و في الليلة الماضية تقدّم أحد أبناء كتائب القسام بعملية نوعية فقتل خمسة و جرح العشرات من جنود مستوطني الصهيانة ..

و كانت تلك الأيام التي ترسّخت فيها وحدة الدم الفلسطيني وجدت تعبيراً عنها في كلمات البيتاوي في ذلك اليوم و هو يعتلي منبر مسجد معزوز المصري في نابلس محرضاً : "تحمّدك يا رب على هذه العمليات .. اللهم اجعل مثل هذه العمليات كثيرة يا رب العالمين .. نعم ألف تحية لكتائب القسام و كتائب شهداء الأقصى و كتائب أبو علي مصطفى و سرايا القدس .. (و في ذلك فليتنافس المتنافسون) .. يا أبناء الكتائب تقدّموا و استمروا في جهادكم و في عملياتكم فالعدو لا يفهم إلا لغة القوة .. نسأل الله عز و جل أن يحفظكم و أن يُثبت أقدامكم و أن يلقي الرعب في قلوب أعدائكم و أن يُعيمي الأبصار عنكم يا رب العالمين .. نعم هذا سلاحنا القويّ قنابل بشرية لا يقدر عليها الصهيانة ، فلا تستهينوا بأنفسكم و لا بقوتكم فهناك مواكب الاستشهاديين بالانتظار فنسأل الله تبارك و تعالى أن يكتب لنا الشهادة في سبيله يا رب العالمين .. أجل أيها المسلمون لن تخيفنا جرائم الصهيانة و لا عدوانهم و لا تهديدهم ، فقد أثبتتم يا أبناء شعبنا و أكدتم أن ما يسمونه جيش "إسرائيل" الذي لا يُهزم ، ها هو شعبنا يُمرغ أنوف جنرالات العدو في التراب و يقتل جنوده و يجرحهم و يلقي الرعب في قلوبهم و ها هو الجيش "الإسرائيلي" يقرّر اليوم إزالة الحواجز خاصة حاجز عيون الحرامية الذي قتل فيه مجاهد واحد عشرة من جنود العدو و جرح أكثر من هذا العدد و سرغمه بإذن الله على أن يفكّك مستوطناته و يرحل في الأيام القادمة بإذن الله" .

و قصدت أن اقتبس هذه الفقرات الطويلة من خطبة الشيخ البيتاوي ، لأنها تعكس بشكل أو بآخر الأجواء في تلك الأيام من انتفاضة الأقصى التي كانت فيها دماء الاستشهاديين و من بينها دماء عاصم ربحان حاضرة بقوة فاستشهد الشيخ البيتاوي به "أرواح الشهداء و دماء الجرحى ستتحول إلى نار تحرق الغزاة المحتلين ، و يوم أن توغل الاحتلال في قرية تل قبل أشهر فقتلوا المجاهد محمد ربحان الذي منع الصهيانة إسعافه حتى تصقى دمه و عندما دفن هذا الشهيد أقسم شقيقه عاصم على ساعة الدفن أقسم بالله ليثأرنّ لدماء شقيقه و لدماء شهداء شعبنا فوفى بقسمه و حمل رشاشه و قام بعملية قتل فيها و جرح العشرات من الصهيانة بالقرب من مدينة نابلس ..

و عزّز من بروز مسألة الثأر ما نقلته بعض وسائل الإعلام عن والدته الشهيد عاصم ، من إنها طلبت منه بعد استشهاد ابنها محمد الانتقام لدمائه . و في الواقع فأنتني لا أربح كثيراً في تصنيف عملية الشهيد عاصم البطولية بكل المقاييس ، في خاتمة رد الفعل أو الثأر فقط ، فعاصم كان يعدّ نفسه منذ وقتٍ هو و شقيقه الشهيد محمد و ياسر عصيدة لتنفيذ عمليات استشهادية ضد المحتلين ، كما سبق و بينت بعد مشاهدةشرطة الفيديو التي تبينهم و هم يعدّون لتلك العمليات .

و ربما بسبب هذا الإعداد جاءت عملية الشهيد عاصم بهذه القوة و العنفوان و التي شارك زملاؤه في كتائب القسام في مساعدته فيها و عملوا كفريق واحد ، و أصبح لأهل بعض هؤلاء المشاركين في الأعداد لتلك العملية فخراً و شرفاً كبيراً مثل عائلة الشهيد محمد عزيز حاج علي من قرية جماعين .

(3)

ولد الشهيد محمد عزيز حاج علي (أبو عاصم) بمدينة نابلس في 1975/8/7م و تزوج عام 1998م و له طفلتان ... منال - 3 سنوات- ، و آية - 10 شهور - ، و استشهد بتاريخ 2002/4/13م في قرية جماعين ، بعد أن تمكن جنود الاحتلال من الوصول إلى مخبئه .

و بين هذه التواريخ الثلاثة عاش (أبو عاصم) مناضلاً و قائداً ضمن صفوف كتائب عز الدين القسام ، تاركاً خلفه كما قالت عائلته في تقرير أعدته عنه "أسوداً لا تلين للصعاب .. سهر عليهم في ظلمة الليل متحدياً جبلاً و ودياناً ليصبحوا أشباه عمر و خالد و صلاح ليتسلحوا بقوة الرياح العاتية .. محطمين كيان عدوهم .. مزلزلين أسطورة الجيش الذي لا يقهر .. ليتبثوا للعالم أن أحفاد القردة و الخنازير أو هن من بيت العنكبوت" .

و حسب عائلته فإنه : "كان منذ نعومة أظافره بطلاً .. فقد طلب من جندي صهيوني سلاحه أثناء عبوره إلى الضفة الغربية .. كانت إجابته عندما سأله الجندي عن السبب أنه يريد قتله لأنه غاصب محتل و كان عمره حينئذ 5 سنوات .. كما أنه خرج من بيته أثناء سكنه في الأردن إلى وطنه و أرضه الحبيبة في عام 1993 .. إلى ربوع فلسطين و جبالها .. حيث كان ابن 18 ربيعاً .. وبدأ فيها المشوار .. فكانت

انطلاقته الأولى من سجن نابلس المركزي الذي دخله عند أول زيارة لجبل النار ثائراً على جنود صهيانية .. فلم يحتمل قلبه المجاهد أن يتغافل عن وجود محتل على أرضه و ما كان بيده إلا الحجر و بقايا زجاجات فارغة .. اعتقل على إثرها لمدة 47 يوماً" ..

و في السجن "تعرف هناك على أحد كوادر حركة المقاومة الإسلامية حماس .. ساعده للوصول إلى معسكرات التدريب في جنوب لبنان .. حيث خضع للتدريب من قبل مجاهدي حزب الله فتعلم الرماية مجسداً حديث الرسول صلى الله عليه و سلم : (ألا إن القوة الرمي) فاستحق بذلك لقب قتّاص الكتائب و تعلم صنع العبوات النافسة و إلقاء القنابل اليدوية" .

و لا توجد مصادر أخرى ، كحركة حماس أو حزب الله أو أية مصادر مستقلة تؤكد التعاون بين الجانبين كما تذكر عائلة الشهيد محمد عزيز حاج علي ، و إن كان وجب التسجيل هنا إلى ما شكله حزب الله من قوة دفع معنوي لا توصف للمقاومين في فلسطين ، و تحولت محطته الفضائية (المنار) إلى صوت لانتفاضة الأقصى .

و مع اندلاع هذه الانتفاضة شكل (أبو عاصم) مجموعة سرية "تتكوّن من خيرة الشباب و أفضلهم .. و عقودوا العزم على الثأر لدين الله و الأرض المقدسة .. فكانت أول تجاربهم بالزجاجات الحارقة ثم تطوّر النضال لسلاح أوتوماتيكي اشتراه على نفقته الخاصة .. و ذهب إلى الشارع الرئيسي ليفرغ حقه الدفين في أول مستوطن رآه .. و أرداه قتيلاً يوم 8/7/2001م .. و بعد هذه العملية تم اعتقال رفاق دربه ليصبح مطارداً . و توالى العملية تلو العملية ليسقط في صفوفهم عددٌ من القتلى و الجرحى و يصبح الأسطورة .. و الرعب .. و الخوف .. و شبح الليل .. على الطريق المسمى عابر السامرة و طريق وادي قانا .. فيغدو قتي الجبال يقاتل طالباً إحدى الحسينيين .. نصراً أو شهادةً" .

و في هذه الظروف النقي (أبو عاصم) مع الشهيد عاصم ربحان و جهّز معه العبوات النافسة التي استخدمت في عملية عمانوئيل ، و حسب عائلته فإنه شارك "رفيق السلاح و الجبال عاصم ربحان بطل عملية عمانوئيل .. و ينفذها سوية و تكتب له الحياة .. و يستشهد الريحاني" .

و يستمر في مقاومته .. يجهّز استشهاديين ، و يحاول إطلاق أول جيل من صواريخ قسام 2 ، و يعيش مطارداً ، و يبدو أن قوات الاحتلال استدلت على مكانه في الجبال نتيجة معلومات استخبارية ، فحاصروه في إحدى المغارات "فما كان منه إلا أن يتحصّن في مكانٍ منيع .. مع رشاشه القديم .. و ذخيرته القليلة ..جنودٌ في كلّ مكان .. طائرات الأباتشي تحلق في سمائه تُنزل المظليين .. ينقض عليهم كالليث .. و بلا هوادة .. يتبادلون إطلاق النار .. و تبدأ الذخيرة بالنفاد .. و لا مفرّ من قدر الله إلا إلى قدر الله .. و يطلق الجنود كلّ ما معهم في رعب .. الرعب الذي طالما سيطر عليهم من مجرد ذكر اسم هذا البطل .. و قاوم ببسالةٍ و استماتة .. ليوقعهم في ساحة الوعى بين قنبل و جريح .. و يطلقون الغازات السامة .. مما اضطره إلى مغادرة موقعه الحصين .. إلى العرا .. بلا حائل .. و تضرب الطائرة ضربتها .. و تقصف .. و يصاب الأسد الهصور .. و ينقض الثعلب على ضحيته .. و ينشب مخالبه في جسم طريدته .."

و بعد استشهاده أفرغ جنود الاحتلال عشرات الطلقات في جسده و مثلوا فيه معلنين ما اعتبروه انتصاراً على أحد رفاق عاصم ربحان ، و كان لافتاً أن الملقق الذي أصدرته حركة حماس للشهيد تضمن صور الشهيد عاصم ربحان و شقيقه الشهيد محمد ربحان في إشارة واضحة إلى انتماء محمد عزيز حاج علي لنفس الخلية .

و كان استشهاد محمد عزيز مؤثراً على كل من عرفه ، و بعبارات عفوية وصفت عائلته جنازته و معنى غيابه "نال الشهادة و برغم الاستشهاد أفرغوا نار حقدهم من أسلحتهم في الجسد المسجى .. رحل بشموخ المنتصر .. وما زال الركب يسير .. يعلو صوت التكبير .. في عرس الأمير .. تزفه الحشود .. ورائحة المسك تعانق صوت البارود .. دمعٌ ينساب فوق الخدود .. صوتٌ يزلزل كل الوجود و بعد شهادته لم يصدقوا أنفسهم وداهموا منزل والد الشهيد مرتين وانزلوا رايات الفرح و سرقوا صور الشهيد .. ،،،، ذهب محمدٌ بجسده .. لكن روحه لم تغادر .. فكانت هي الأمل .. في استرجاع ما ذهب مع الزمن .. لنعيد الوطن السليب بأي ثمن .."

و لكن المعركة لم تنته عند ذاك الحد ، فبقي رفاقٌ آخرون لعاصم تلوح لهم مستوطنة عمانوئيل ، في تلك البقعة العربية ، فيتحدّون من جديد الجيش الذي قال عن نفسه إنه لا يقهر .

الفصل الثالث

أيام المطاردة و المقاومة

رغم أنه من الصعب التقليل من أهمية غياب الشهداء ياسر عسيبة و فهمي أبو عيشة و محمد ربحان و عاصم ربحان و محمد عزيز الحاج علي ، سواء بالاعتقال أو بالاشتباكات أو تنفيذ العمليات الاستشهادية ، إلا أنه يمكن القول إن نواة صلبة أخرى لمجاهدي كتائب عز الدين القسام في قرية (تل) و القرى و المدن المجاورة ، بقيت خارج قبضة المحتلين و من أبرز أسمائها المعروفة نصر الدين عسيبة و عاصم عسيبة و سامي زيدان و نائل رمضان .

و عندما اقتحمت قوات الاحتلال بلدة (تل) يوم 2001/11/12 ، في عملية عسكرية صهيونية واسعة ، و كانت حينها تخضع لسيطرة السلطة الفلسطينية ، و كانت تلك إحدى أوائل ما عرف حينها باسم عمليات التوغل ، تم قتل الشهيد محمد ربحان كما سبق و ذكرنا ، و تركه ينزف حتى الموت ، و لم يكن الشهيد محمد ربحان هو هدف العملية فقط ، بل كانت أجهزة الاحتلال العسكرية و المخابراتية تبحث عن آخرين ، من بينهم نصر الدين عسيبة .

و برز من وحدات الاحتلال ما يعرف باسم وحدات المستعربين ، التي أخذت في مداومة منازل المواطنين لساعات طويلة بعد تمكّنها في ساعات الحملة الأولى من قتل الشهيد محمد ربحان .

و دفعت قوات الاحتلال بقوات كبيرة محمولة و من المشاة تساندها آلياتها ، و كأنها في حرب حقيقية ، بل كانت فعلاً تخوض حرب من طرف واحد ضدّ السكان المدنيين .

و فرضت قوات الاحتلال طوقاً على البلدة ، و اعتقلت العشرات من الشبان الذين جمعتهم في إحدى الساحات ، و ركزت في تفتيشها على منازل آل عسيبة ، و لكنها اضطرت بعد تلك العملية العسكرية الكبيرة من الانهزام و الخروج بدون نصر الدين عسيبة : حياً أو ميتاً ..

و كان معظم هؤلاء مطاردين لقوات الاحتلال منذ أمدٍ بعيد خاصة القائد نصر الدين عسيبة الذي ينسب له مشاركته في عملية ضدّ مستوطني يتصهار عام 1998م و التي أسفرت عن مقتل عدد من المستوطنين و اتهمت فيها خلية من كتائب القسام ضمتّ الشهيد محمد ربحان و ياسر عسيبة ، و قامت السلطة الفلسطينية باعتقال هؤلاء و مكثوا في السجن الفلسطيني نحو عامين ، و خرجوا في ظروف انتفاضة الأقصى . و بعد عملية الشهيد عاصم المدوية ضد مستوطني عمانوئيل اتجهت أصابع الاتهام إليه مجدداً بالمشاركة في العملية .

و من الصعب معرفة الأساليب التي اتبعتها نصر الدين عسيبة و رفاقه في التخفي و كيف أمضوا أيام التخفي تلك ، و لكنهم سجلوا نصراً من نوع ما على القوات الصهيونية المحتلة المجهزة بالتكنولوجيا و بنظام إداري استخباراتي و لهم الغلبة على الأرض من خلال القدرة على التوغل و الاجتياح و الاحتلال و تجنيد عملاء .

و استمرت قوات الاحتلال بمختلف أجهزتها في ملاحقة نصر الدين و رفاقه المطاردين ، و اعتقلت العديد من أقربائهم ، خلال عمليات التوغل و الاحتلال و القمع التي تعرضت لها بلدة تل ، و التي استمرت بوتيرة عالية في محاولة لتحويل حياة سكانها إلى جحيم ، لخروج هذا العدد الكبير و المميز من المقاومين منها ، و في محاولة لتطمين مستوطني عمانوئيل ، و الرأي العام في الكيان الصهيوني ، الذي كان ملولاً من فشل شارون المتكرر في جلب الأمن ، رغم الجرائم و القتل و الاعتقال و فتح سجون جديدة لاستقبال آلاف الفلسطينيين .

و في فجر يوم 2002/1/4م ، كانت قرية تل على موعد مع عملية عسكرية صهيونية جديدة ، و يوم حزين آخر في حياتها . في ذلك الفجر ، بدأت عملية عسكرية صهيونية أخرى واسعة ، و يبدو أنها كانت

تستند إلى معلومات استخبارية ، و كان قادة أجهزة أمن الاحتلال موقنين أنهم أخيراً سيقبضون على نصر الدين عصيدة و رفاقه .

تقدّمت الدبابات و قوات المستعربين على الأرض و مروحيات الأباتشي في الجو ، و أعلن حظر التجوال في البلدة ، و تم محاصرة منازل القرية و تشديد الحصار على منازل عائلات المقاومين .

و حسب سكان من القرية فإن عملية الاحتلال بدأت في نحو الثانية بعد منتصف الليل ، و بعد عمليات التمشيط الواسعة وقع اشتباك في نحو الساعة الخامسة فجراً ، كان من نتيجته استشهاد المقاوم نائل تحسين محمد الصيفي رمضان - 20 عاماً - .

و فيما بعد أكدت مصادر موثوقة بأن الاشتباك وقع في منطقة يعتقد أن نصر الدين عصيدة موجود بها مع عددٍ من رفاقه مثل عاصم عصيدة و سامي زيدان و غيرهم ، فتمّ اتخاذ القرار بسرعة ، و قام المقاوم نائل رمضان بالتغطية على انسحاب البقية و استشهد . و مع ذلك اعتبرت تلك الأوساط ، أنه رغم استشهاد رمضان فإن العملية فشلت لعدم القبض على القائد نصر الدين عصيدة . و في ردّ فعل (عصبي) أقدمت جرّافات الاحتلال التي شاركت في الحملة العسكرية بهدم أجزاء من منزل الشهيد ياسر عصيدة .

و حاصرت قوات الاحتلال منزل عاصم عصيدة ، و هو ابن شقيقة الشهيد ياسر عصيدة ، و سببرز اسم عاصم بقوة فيما بعد ، و اعتقلت والده و شقيقه حازم . و بسقوط الشهيد رمضان كان عدد شهداء القرية خلال انتفاضة الأقصى ، حتى ذلك الحين ارتفع إلى سبعة شهداء ، هم بالإضافة إلى نائل : محمد لطفي قاسم ، عبد المعين حسن حمد ، مصطفى حلمي رمضان ، ياسر أحمد عصيدة ، محمد يوسف ربحان ، و عاصم يوسف ربحان . و تراجعت قوات الاحتلال بعد نحو 15 ساعة من الاحتلال و التكتيل و قتل الشهيد رمضان .

و ودّعت القرية ، في اليوم التالي 2002/1/5 بكثير من الحزن و الفخر ، كما يحدث عادة لدى الفلسطينيين ، الشهيد نائل ، الذي نوّه الكثيرون بخصاله و خصال عائلته و والده الذي اعتقل من قبل قوات الاحتلال و صدر بحقه حكمٌ أكثر من عشرين عاماً ، و أفرج عنه ، بعد عدة أعوام في عملية تبادل الأسرى الشهيرة عام 1985م .

و انطلق موكب الجنازة من مستشفى رفيديا في نابلس إلى ميدان الشهداء وسط المدينة للصلاة عليه في موكب جنازي مهيب . و رفعت الأعلام الفلسطينية و ردّدت الهتافات المنذّدة بالجريمة و الداعية لاستمرار الانتفاضة و المقاومة و الردّ على جرائم الاحتلال ، و أقيمت كلمات تأبينية وداعية للشهيد و أطلق الرصاص تحية و وداعاً له.

و أدّى الشيخ ماهر الخراز صلاة الجنازة على الشهيد و من ثم انطلق الموكب الجنازي إلى مسقط رأسه في بلدة تل ، سالكا نفس الطريق التي سلكتها مواكب رفاق دربه : ياسر عصيدة ، محمد ربحان ، عاصم ربحان . و تمّ موازاة جثمانه الثرى في قريته ، في مسيرة حاشدة ، و أصدرت كتائب الشهيد عز الدين القسام التي ينتمي إليها الشهيد بياناً أورد هنا نصه :

"بسم الله الرحمن الرحيم

(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بذلوا

تبدلاً)

دماء أبناء القسام غالية علينا و سيدفع الصهاينة الثمن غالياً و نقول للعدو إن الذي يهدّد هو من القسام و ستعلمون من هم أبناء القسام

بيان عسكري صادر عن كتائب الشهيد عز الدين القسام

في الوقت الذي يتهم فيه من يدافع عن نفسه بأنه إرهابي ... و طالب المجاهدون بوضع السلاح من أجل كسب ما يسمّى بالموقف الدولي ... يتبيّن للقاصي و الداني أن هذا الدّعم الدولي لا يبكي إلا على دماء الصهاينة فكلما قام أبناء شعبنا برد العدوان عن أرضهم و الانتقام لشهائدهم تباكى العالم المتحضّر الزائف على الصهاينة و سارع إلى إرسال مبعوثيهم لممارسة الضغوط من أجل اعتقال من يدافع عن نفسه و لا

يرضى بأن يسلم رأسه للاحتلال ... و يتبين للعالم أجمع أن وقف العمليات و المقاومة تعني الضوء الأخضر للصهاينة في ارتكاب مزيد من المجازر الوحشية و عمليات الاغتيال ضد أبناء شعبنا و مجاهديه الأبطال .

فمن قتل الأطفال في غزة و التتكيل بجثثهم إلى مواصلة الاقتحامات و هدم البيوت و تشريد النساء و الأطفال و حملات الاعتقال و الحصار و الإذلال لشعبنا جاءت جريمة اليوم ضد أهلنا في قرية تل الصمود حيث قامت دبابات العدو و مجنزراته و طائرات الأباتشي باحتلال القرية و تصفية المجاهد (نائل تحسين رمضان) أحد مجاهدي كتائب القسام الأبطال و تركه ينزف أمام أهله لساعات طويلة حتى فاضت روحه الطاهرة إلى ربها و اعتقال العشرات من أبناء القرية و ترويع النساء و الأطفال و الشيوخ و تدمير محتويات كثير من المنازل و محاصرة الأهالي داخل منازلهم لساعات طويلة .

و إننا في كتائب الشهيد عز الدين القسام إذ ننف لشعبنا أحد مجاهدين الأبطال ... نقول للصهاينة إن الكتائب قادمة لتحوّل حياتكم إلى جحيم و ليدفع كلّ الصهاينة ثمن سياسة زعيم الأمن شارون الذي لن يجلب للصهاينة إلا القتل و الدمار ، و الكتائب إذا قالت فعلت و إذا وعدت وفّت .

و الله أكبر .. و لله الحمد
كتائب الشهيد عز الدين القسام
2002/1/4م

و عاش نصر الدين عسيده و رفاقه ظروفًا غاية في الصعوبة في الأشهر التالية لاستشهاد رفيقهم نائل رمضان ، و كذلك كان الحال بالنسبة لعائلاتهم ، التي اعتقل العديد من أفرادها .

و من مخابئهم في الجبال كانوا يتابعون عمليات الاحتلال بعد احتلال المدن الفلسطينية خلال الأشهر التالية و التي وصلت ذروتها ، في شهر نيسان عام 2002م في العملية الاحتلالية التي عرفت باسم (السور الواقى) و التي تم خلالها ارتكاب مجزرة مخيم جنين الشهيرة و مجزرة لا تقلّ بشاعة في البلدة القديمة في نابلس حيث سقط أكثر من ثمانين شهيداً ، منهم من كان من رفاق دربهم ، و ارتكبت مجازر بشعة أخرى في مدينة رام الله ، و تمّ دفن الشهداء هناك بعد أيام في قبر جماعي ، و تمّ محاصرة كنيسة المهد في بيت لحم بعد سقوط العديد من الشهداء .

و في هذه الأثناء و بعدها كانت قرية (تل) و محيطها عرضة لاقتحامات قوات الاحتلال بحثاً عن المقاومين ، مثلما حدث في 2002/5/2م ، حيث تقدّمت الدبابات و المروحيات كالعادة بعد منتصف الليل ، و حاصروا منازل المطلوبين و أطلقوا النار على منازلهم و أخرجوا أطفالهم و عائلاتهم و نكلوا بهم . و أجبروا أمل - 12 عاماً - شقيقة عاصم عسيده من خلع معطفها بعد إخراجها و عائلتها إلى خارج المنزل .

و عاشت المدن الفلسطينية ظروفًا قاسية حتى بعد أن خفّت قبضة قوات الاحتلال عنها نسبياً ، و في هذه الأثناء كانت النواة الصلبة لخلية تل تعاود شهادتها و شعبها ، و تستعد لوضع بصمتها القوية ، هذه المرة أيضاً ، على بقرة الاحتلال المقدّسة المسماة الأمن !..

الفصل الرابع

من يلدغ من نفس الجحر

(1)

إذا كان من غير الممكن الإلمام بظروف نصر الدين عسيده و رفاقه المختلفة في رحلة المطاردة الطويلة ، دون وجود رواية من جانبهم ، فإنه يمكن تصوّر ما كانوا يفكرون به من البصمات التي كانوا يتركونها موقعة خسائر كبيرة في جيش الاحتلال و مستوطنيه ، و هذه المرة كانت بصمتهم واضحة بأكثر من أي

وقت مضى و في نفس الوقت تركوها في المكان الذي لم يتوقعه أحد سواء من الفلسطينيين أو من سلطات الاحتلال و مخابراتها .

كانت هذه المرة ، و للمرة الثانية ، و بشكل مدوّي ، و في "عز الظهر" في عمانوئيل ...! كان ذلك يوم 2002/7/16م ، في نحو الساعة الثانية و النصف ، لا أحد يعرف كيف خرج المقاومون ليعترضوا حافلة ركاب تقل المستوطنين إلى مستوطنة عمانوئيل ، مثلما حدث في المرة الأولى ، و يبدو أن عملياتهم بحصد ركاب الحافلة القادمة من مدينة بني براك قرب تل أبيب إلى عمانوئيل .

و كانت المفاجأة أكثر مما تحتمل بالنسبة لحكومة الاحتلال و لكن ظروف وقوع العملية و مكانها جعلها لا تستطيع إنكار ما حدث فأعلنت عن وقوعها و مقتل ثمانية من المستوطنين و جرح أكثر من عشرين منهم ، وصفت جراح عشرة منهم بالخطيرة .

عمانوئيل ... نعم عمانوئيل و للمرة الثانية ، و في ظروف المطاردة الصعبة .. ! و تردّد أن نفس سيناريو العملية الأولى التي كان بطلها عاصم ربحان قد نقد : انفجار عبوة وضعت في طريق الحافلة ، ففتوقف ، ثم يشنّ الهجوم ..!

و لدغ شارون و حكومته و مستوطنيه من نفس الجحر مرتين ...!

و أصدرت كتائب الشهيد عز الدين القسام ما أسمته ببياناً عسكرياً تبنت فيه بثقة و فخر عملية عمانوئيل الجديدة ، و أشارت إلى تنبّي بعض الأطراف الفلسطينية لها ، و أورد هنا نص البيان كاملاً :
"الثلاثاء 6 جماد الأول 1423 هـ الموافق 2002/7/16

(وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ)

لن ينعنا الحصار و منع التجول من ضرب الصهاينة في كل مكان

يا جماهير شعبنا الفلسطيني المجاهد يا أمتنا العربية و الإسلامية :

بقوة الله و حفظه تعلن كتائب الشهيد عز الدين القسام مسؤوليتها التامة و المطلقة عن العملية البطولية التي نفذت ظهر اليوم الثلاثاء 6 جمادى الأول 1423 هـ الموافق 2002/7/16 حيث تقدّمت إحدى مجموعتنا المجاهدة في تمام الساعة 14:40 دقيقة بتوقيت القدس المحتلة باتجاه مستوطنة عمانوئيل المقامة على صدر أرضنا المحتلة حيث كان المجاهدون قد زرعوا عدة عبوات ناسفة على بوابة المستوطنة و عندما وصلت حافلة المستوطنين التابعة لشركة دان "الإسرائيلية" فجر المجاهدون العبوات الناسفة ثم ألقوا ما بحوزتهم من قنابل بدوية ثم أمطروا الحافلة بوابل من الرصاص القسامي المنهمر و بحمد الله و توفيقه عادت المجموعة إلى قواعدها سالمة تحقّقها رعاية الرحمن .

إن كتائب القسام تؤكّد أن نفس المجموعة التي نفذت عملية عمانوئيل في شهر ديسمبر الماضي و في نفس المكان و قتل فيها 11 صهيونياً و أصيب العشرات هي نفس المجموعة التي نفذت عملية اليوم .

إن كتائب الشهيد عز الدين القسام إذ تهدي هذه العملية لكافة أبناء شعبنا المجاهد و تؤكّد على ما يلي :

1. إن كتائب القسام أقسمت أن تسدّد ضرباتها في كلّ مكان يطاله المجاهدون حتى يرحل الصهاينة عن أرضنا صاغرين .

2. كتائب القسام تؤكّد على أن مسيرة الجهاد و المقاومة ستستمر بإذن الله تعالى .

3. ندعو الفصائل التي تبنت هذه العملية إلى سرعة نفي التنبّي لأن كتائب القسام تمتلك الأدلة الكافية لذلك ، و سنقوم بنشر تفاصيل العملية في وقت لاحق إن شاء الله تعالى .

إنه لجهاد .. نصرٌ أو استشهاد

كتائب الشهيد عز الدين القسام

الثلاثاء 6 جماد الأول 1423 هـ

الموافق 2002/7/16

و بدأت الأوساط الصهيونية تحاول إيجاد المبررات لذلك الاختراق ، فتمّ الحديث عن أن المهاجمين ارتدوا ملابس جيش الاحتلال لدى تنفيذهم العملية ، و هو ما اعتبره المراقبون إحدى ميزات المقاومين الذين يتحلون ليس فقط بشجاعة بل أيضاً بتخطيط و ذكاء .

و من السهل توقع ماذا ستكون ردة جيش الاحتلال "المقهور" ، فبدأت وحداته المنتقاة عمليات تمشيط واسعة بحثاً عن المهاجمين ، و وحدات أخرى استباحّت قرية تل و مساكنها و سكانها ، في عملية هي الأوسع التي تتعرّض لها القرية ، و نفذت حملة اعتقالات واسعة طالّت أهالي المطاردين و المطلوبين .

و حاصرت قوات الاحتلال منزل نصر الدين عسيبة و أجبرت السكان على الخروج منها تحت الضرب و قامت بنسفه بالديناميت مما أدّى إلى تدميره بالكامل و تطاير الحجارة إلى مسافات كبيرة و تضرّر عشرات المنازل .

و حاصرت عدداً من المنازل منها منزلي المطاردين عاصم عسيبة و سامي زيدان اشتية و اعتقلت قوات الاحتلال مصطفى عسيبة والد نصر الدين و أربعة من أبنائه ، و والد المطارد سامي زيدان و عمره أكثر من ستين عاماً و خمسة من أبنائه ، و اعتقل سمح عسيبة والد المطارد عاصم و شقيقه حازم .

و تزامن ذلك مع حملة أخرى في مخيم عسكر الجديد شرق مدينة نابلس ، حيث تمّ مدهمة منزل محمد أحمد العجوري والد المطارد علي العجوري أحد قادة كتائب شهداء الأقصى ، و تمّ نسف المنزل المكوّن من ثلاثة طوابق و تدمير 10 منازل محيطة بها بينها أربعة منازل بشكل كامل .

و نفذت حملة اعتقالات لعائلات المطلوبين في نابلس كان من بينهم كفاح العجوري شقيق علي العجوري ، و كانت قوات الاحتلال اعتقلت سابقاً شقيقتهم انتصار و حولتها للاعتقال الإداري بدون محاكمة . و بدأ الحديث عن نية سلطات الاحتلال إبعاد المطلوبين إلى قطاع غزة ، و في هذه الأثناء كانت عمليات التمشيط الصهيونية جارية .

(2)

بعد وقوع العملية و اتهام نصر الدين عسيبة بالوقوف وراءها و بالتوازي مع هدم منزله و اعتقال والده و أشقائه و أفراد عائلتي سامي زيدان و عاصم عسيبة ، شنت قوات الاحتلال حملة تمشيط واسعة لملاحقة نصر الدين و رفاقه ، في منطقة وادي قانا و محيط مستوطنة عمانوئيل ، و أعلن جيش الاحتلال أن هناك اعتقاداً بأن مقاوماً أو اثنين من منقذي الهجوم ما زالوا مختبئين في تلك المنطقة .

و وقع صباح اليوم الثاني لتنفيذ العملية ، حادث آخر ، بعد وقوع اشتباك بين قوات "التمشيط" الصهيونية و أحد المقاومين الذي تمكّن من قتل أحد ضباط جيش الاحتلال و إصابة ثلاثة من الجنود .

و بعد تلك المعركة استشهد المقاوم و الذي اتضح فيما بعد أنه عاصم عسيبة ، أحد الذين تمّ مدهمة منزل عائلته في قرية تل و اعتقال والده و شقيقه حازم .

و حسب تقرير أعدّه الصحفي نصير الريماوي رصد فيه عدداً من "المفارقات" في حياة عاصم ، فإنه استشهد بتاريخ 2002/7/17م في ذكرى زواج والده ، و تاريخ ميلاده (11/2) يصادف اليوم التالي لاستشهاد خاله ياسر عسيبة ، و عندما ولد عام 1979م كان والده معتقلاً في سجن نابلس و استشهد و والده في المعتقل . و هو يحمل نفس اسم الشهيد عاصم ربحان زميله في نفس المدرسة و في نفس الصف و استشهدا في نفس المنطقة و في ظروف مشابهة .

قال والد عاصم للصحافي الريماوي : "إنه عندما ولد ابني عاصم لم أعلم بمولده لأنني كنت في قسم التحقيق في سجن نابلس و لم أعرف بمولده إلا بعد خروجي من السجن و عرفت بالأمر عندما التقيت في مدينة نابلس مع بعض الناس و أبلغوني بولادته ، و عندما وصلت المنزل في قريتي تل كان سؤالي الأول عن طفلي الثاني و أخذته و حضنته و قبلته بحرارة باكية و سألت عن اسمه فقال والدي سميت به عاصم ليعصم عنا الشر" .

و لم يعرف والد عاصم باستشهاده لأنه كان في السجن مهّدداً بالإبعاد ، و لم يعرف باستشهاد ابنه إلا بعد عشرة أيام ، و في داخل المعتقل كتب والد عاصم قصيدة رثاء بغياب الورق و القلم و حفظها في قلبه .

و خارج المعتقل لم يتأكد أهل قرية تل و عائلة الشهيد من استشهاد عاصم إلا بعد سبعة أيام من استشهاد ، و في ظلّ غياب والده و شقيقه حازم في المعتقل ، استقبلت عائلته المعزين باستشهاد و الذين توافدوا بالمئات من مختلف المناطق .

و كشف عن وصية تركها عاصم طلب فيها بعدم البكاء عليه و أن تتحوّل أيام عزائه إلى أيام فرح يتم فيها توزيع الحلوى ، و أن تستمر الأسرة في إجراءات زواج شقيقه حازم دون أي تأخير .

و كتب : "العين بالعين و السن بالسن و البادئ أظلم ، و اقتحام القرى باقتحام المستوطنات" و كان ذلك أكثر من وصية ، إنها بيانه السياسي و مجموعته المقاومة . و برأيه إنه يتوجب التوقف قليلاً عند ما خطّه والد عاصم من رثاء له .

(3)

كتب الأستاذ سميح والد الشهيد عاصم مقدمة لقصيدة الرثاء التي كتبها لابنه قائلاً : "الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيّد المرسلين و على آله و صحبه أجمعين و بعد :
هذه كلمة رثاء لولدي الحبيب الشهيد البطل "عاصم سميح عسيده" بطل عملية عمانويل الثانية ، و الذي استشهد خلال اشتباك مسلح مع قوات الاحتلال الصهيوني إثر تنفيذ العملية البطولية المذكورة فجر يوم الأربعاء الموافق للسابع عشر من تموز عام ألفين و اثنين للميلاد ، و لدي الحبيب عاصم ، أستهلّ كلامي بقول الله تعالى "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه و منهم من ينتظر و ما بدلوا تبديلاً" صدق الله العظيم .

**حبيبي عاصم ،
قَبَلْتُ جبينك يا ولدي
قَبَلْتُ سلاحك يا ولدي
قَبَلْتُ حذاءك يا ولدي
قَبَلْتُ النور الساطع في عينيك
قرأت في محياك الشهامة و العنفوان
و لمحت في عينيك صدق البيان
و شهدتك فجراً تقرأ القرآن
فايقنت في صدرك عهداً و إيمان**

و يمكن تصوّر اللواعج التي تنتاب الأب - أيّ أب - عندما يأتيه خبر استشهاد ابنه ، و هنا يفخر الأستاذ سميح بابنه أمام العالم "يا لها من معادلة مذهلة يا ولدي ، أحد طرفيها فردٌ واحدٌ ببندقية و رصاصات متبقية قليلة ، بينما الطرف الآخر آلاف الجند المزودين بالطائرات و الدبابات و المدافع و القنابل .

لله درك يا ولدي ما أعظم إيمانك ، و سبحان الذي منحك هذه الجرأة النادرة و العزيمة الأسطورية ، يا ليبتني يا ولدي كنت إلى جانبك ، أشاطرك هول الموقف ، و أقاسمك قسوة اللقاء . يا ليبتني يا ولدي كنت أقف أمامك ، أحميك بصدري ، و أفديك بدمي ، لكن إرادة الله حالت دون ذلك" ..

و يستمر في مخاطبة ابنه راسماً و متخيلاً المشهد الفصل الذي عاشه فلذة كبده ، في اليوم الثاني للعملية و بعد مطاردة جنود الاحتلال لمنقذي العملية : "أعددت سلاحك يا ولدي ، و صليت خاشعاً لله ، و قبلت تراب وطنك ، و قبلت رصاصاتك الباقية ، و انتظرت بزوغ الفجر بفارغ الصبر ، و ما إن لاحت تبشير الصباح ، صباح الأربعاء الموافق للسابع عشر من تموز عام ألفين و اثنين للميلاد ، حتى وقفت شامخاً بصدر يعمره الإيمان ، تجول بعينيك كعيون الصقر المتأهب للانقضاض ، فما إن لمحت مجموعة من

الجند في موقع قريب منك ، حتى وثبت نحوهم كبرق من السماء تمطرهم برصاصاتك الغالية ، هاتفاً الله أكبر ، فأرديت قائدهم قتيلاً ، و سقط عدد من جنوده يتخطون بدمائهم ، و استمر رصاصك يا ولدي مدوياً حتى عزّ الرصاص ، فجَنّ جنون جند الشر و الطاغوت ، و انهالت عليك فذائفهم لتطال المارد المغوار ، فاستجاب رب العزة لرغبتك و دعاك و منحك الشهادة التي ألبيت في طلبها ، فهويت مقبلاً سلاحك و مكبراً لله ، و سال دمك الطاهر يا ولدي مدراراً ، ليروي أشجار الزيتون التي أحببت ، و ليظهر تراب الوطن من دنس الأشرار ، لتتبت الزنبقة الطيبة الطاهرة نقية" ..

و بكلمات مؤثرة يستمر مخاطباً ابنه واثقاً أنه يسمعه : "طارت روحك يا ولدي عبر جراحك ، تحف بها ملائكة الرحمة ، لتبدأ رحلتها الأبدية عبر الزمان و المكان ، نحو ملكوت الله في الأعالي ، لتنعّم أرواح من سبقك من الشهداء من أمثال خالك ياسر ، و صديقك نائل و صديقك من أمثال مصطفى إلى الأخوين سميك عاصم و أخيه محمد و غيرهم من أبناء قريتنا الميامين الذين جادوا بدمائهم في سبيل الله" .

و يطمئن ابنه قائلاً : "أصبحت الآن يا ولدي جزءاً من الماضي في مفهومنا البشري ، لكنك الحاضر و المستقبل في ملكوت خالق الكون ، و يا للصدفة و الغرابة مرة أخرى ، فتاريخ استشهادك يا ولدي يصادف تاريخ زواجي من أمك الغالية ، حبيبي عاصم : بلغني نبأ استشهادك داخل زنزانة الاعتقال ، فامتزجت في صدري عواطف متناقضة ، فمن جانب عاطفة اللوعة للفراق الأبدي ، في هذه الدنيا الفانية ، و من جانب آخر عاطفة السعادة لأن الله تعالى لبي لك طلب الشهادة التي قصدت ، فحبست الدمع في عيني ، و كتمت الحرقه في صدري أمام ولدي أخيك حازم ، و توجّهت لله تعالى أن يكون في عون أمك ، التي جاءها خبر استشهادك و أنا و ابننا حازم بعيدين عنها ، دعوته سبحانه بقلب صادق يغمره الإيمان و الرضى بما أراد ، فاستجاب و أنزل سكينته عليها ، و منحها الصبر و قوة الاحتمال ، فالحمد لله ربي على ما أراد ، نعم الإرادة إرادتك .

و يتوجّه إلى الله داعياً : "اللهم لا تحرمني رؤياه و لقاء يوم الحساب ، لأقبل جبينه و أضمه إلى صدري ، اللهم امنحني ما منحتة ، و اكتب لي نهاية كنهائيه ، أتوجه لك ربي بهذا الدعاء ، بقلب خالص لك و بنية أنت أعلم بها ، إنك على كلّ شيء قدير ، و في الختام يا ولدي ، و إلى أن نلحق بك و ننعم بقلائك ، استودعك الله و أختم كلامي بقوله تعالى : (يا أيها النفس المطمئنة ، إرجعي إلى ربك راضية مرضية و أدخلني في عبادي و أدخلني جنتي) صدق الله العظيم ..

و يختم حديثه لابنه : "بقي يا ولدي أن أهدي روحك الطاهرة هذه الأبيات الشعرية التي نظمتها في زنزانة الاعتقال ، بعد سماعي نبأ استشهادك ، و حفظتها عن ظهر قلب ، و دوتها بعد إطلاق سراحني" ..

و مما كتبه الأستاذ سميح لابنه شعراً هذه المرة :

فداك الروح يا ولدي و مالي
حنان الدهر باق لا أغالي
هتفت مرحباً أختي تعالي
آخر مشهد يحكي الوصال
و حام العوم في بحر النزال
لعمرك يا أخي هذا احتفالي
مغيراً بالرصاص إلى التوالي
و راحوا يجمعوا فرق الشمالي
و ترصد سيرهم عبر الظلال
كصقر رابض في برج عالي
قفزت كصرصر تذرو الرمال
و أرهبت الجحافل و الموالى
فطالت فارساً صعب المنال
رشفت المجد من نبع زلال
لرب الكون أولى أن توالي
نشيداً خالداً عذب المقال
تخال لروعتها قصص الخيال

"قالت يا بني فداك عمري
حضنتك يا بني و في فؤادي
أنتك الأخت يا ولدي بزاد
لثمت جبينها شوقاً فكانت
فلما دق ناقوس المنابا
هتفت مزجراً الله أكبر
صلبت مراكب الأعداء ناراً
فجَنّ جنونهم سحق المطايا
و رحت تراقب الأمر ملياً
سهرت الليل مقدماً عنيداً
و لما لاح في الفجر ضياء
أذقت كبيرهم كأس المنابا
فصبوا نار غيظهم جحيماً
لثمت سلاحك المعطاء حتى
هويت متمتماً الله ربي
مهت على أديم الأرض وشمأ
نشقت رواية بدم طاهر

صعدت مراتب الأبطال حتى
أروني رسمت الوضاء ليلاً
معاذ الله أن أبدي مهاناً
معاذ الله أن أدلي بحرفٍ
لأنت الأم تاج فوق رأسي
نظرت الفارس المغوار دهرأ
كفاك الفخر بالمغوار تاجاً
حبست الدمع يا ولدي لكن
سألت الله أن يرعاك عني
لعمري يا بني أراك تزهو
فطب يا صاح باللقيا مكاناً

غدوت معانقاً سطح الهلال
لعل الرسم ينبؤهم بحالي
فليس الوهن من شيم الرجال
و لو بتروا يميني عن شمالي
حملت العباء أثناء اعتقالي
سهرت الليل ساعات طوال
كما الأزهار تكتنف التلال
ضروب الدهر فوق الاحتمال
و يكرمك المكانة ذو الجلال
بروض المصطفى خير الأهالي
و حلق في الجنان و في المعالي

كتب والد عاصم هذه الكلمات في السجن و حفظها غيباً ، و في الخارج كان عدد ضحايا عملية عمانوئيل يزداد ، و الصحف العبرية تنشر المزيد من المعلومات عن العملية و ذكرت إحداها بأن المقاومين بلباس جيش الاحتلال دخلوا إلى الحافلة بشجاعة و رباطة جأش و عندما قدم أحد حراس مستوطنة عمانوئيل إلى داخل الحافلة يسألهم عما حدث أمطروه بالرصاص .
و أثناء ذلك كانت سلطات الاحتلال مستمرة في خطة الانتقام من أقرباء المقاومين .

(4)

و بعد تلك الاعتقالات الواسعة لأهالي المتهمين بتنفيذ و تخطيط عمليات فدائية ، بدأت حكومة الاحتلال تفكر باتخاذ قرارات إبعاد بحق هؤلاء إلى قطاع غزة ، كنوع من العقاب "و ردع" آخرين من أن يقوموا بتقديم الحماية لأقاربهم المتهمين .. ! .
و هددت كتائب شهداء الأقصى بضرب عائلات مسؤولين صهيانية في حال قامت سلطات الاحتلال بإبعاد منفذي العمليات الفدائية أو الذين يقفون وراءها إلى غزة .

و أكدت في بيان أصدرته بتاريخ 2002/7/21م حمل توقيع كتائب شهداء الأقصى - الجيش الشعبي :
"تحذر المحتلين بأننا سنضرب و نهاجم عائلات المسؤولين الصهيانية إذا نقذ قرار الترحيل بحق عائلات الاستشهاديين" ..

و بالمناسبة ، أو بدونها ، دعا البيان الدول العربية إلى قطع كل اتصال مع الكيان الصهيوني متهماً بعضها دون أن يسميها "بتخريب المقاومة الفلسطينية" ..

و كانت بالفعل قضية الإبعاد تشغل الرأي العام ، الذي كان صدم في السابق و في شهر نيسان الماضي من عملية إبعاد كبيرة تمت إلى الخارج و إلى غزة شملت نحو خمسين من الذين حوصروا في كنيسة المهد أثناء عملية الاحتلال العسكرية المسماة "السور الواقي" .

و تزامناً مع صدور بيان كتائب شهداء الأقصى تقدّم نحو 21 أسيراً من الذين تتهم حكومة الاحتلال أقرباءهم بتنفيذ أو الوقوف وراء العمليات الفدائية بالتماس إلى محكمة العدل العليا الصهيونية عن طريق مؤسسات حقوقية ، لاتخاذ قرار بحظر إبعادهم إلى غزة .

و لكن المحكمة لم تستجب لذلك ، و اكتفت سلطات الاحتلال بالتعهد أمام المحكمة بإعطاء من تريد إبعاده إلى غزة إشعاراً قبل الإبعاد بـ 12 ساعة ..! و بدا ذلك في تلك الظروف "قراراً مهماً" حسب تعبير المحامية ليثا تسميل لسبب بسيط "أنه لم يسبق أن كان هناك إشعار في الماضي للذين ينفذ بحقهم الإبعاد" ..

و في تلك الفترة ترددت أسماء كثيرة كانت مرشحة للإبعاد إلى غزة ، و لكن برز من تلك الأسماء في فترة لاحقة أسماء عبد الناصر عصيدة (34 عاماً - شقيق نصر الدين عصيدة و انتصار العجوري (34

عاماً) و كفاح العجوري (28 عاماً) ، شقيقا المسؤول في كتائب شهداء الأقصى علي العجوري الذي اتهمته سلطات الاحتلال بالوقوف خلف عملية استشهادية مزدوجة نفذت في مدينة تل أبيب بتاريخ 2002/7/17م . و اتهمت سلطات الاحتلال شقيقته انتصار بحياكة الحزام الناسف و وقرت مع شقيقها كفاح مخبئاً لشقيقهما علي .

و خاضت سلطات الاحتلال حرب أعصاب ضد المعتقلين من أهالي المطلوبين ، ملوحة بقضية الإبعاد ، و أصدر المستشار القضائي لحكومة الاحتلال "إلياكيم روبينشتاين" في ساعات مساء يوم الخميس 2002/8/1م ، قراراً سمح بموجبه لجهاز الأمن العام (الشاباك) بإبعاد عددٍ من أفراد عائلات منقذتي العمليات الاستشهادية داخل الخط الأخضر ، و المقاومين الفلسطينيين الذين شاركوا في أعمال مقاومة مسلحة ضد قوات الاحتلال و المستوطنين داخل الأراضي المحتلة ، من الضفة الغربية إلى قطاع غزة . و سمح المستشار القضائي أيضاً بتدمير منازل ذوي عددٍ منهم .

و في أعقاب صدور هذا القرار ، أقرّ المجلس الوزاري الصهيوني الخاص بالشؤون السياسية و الأمنية ، خطة لإبعاد أفرادٍ من عائلات المشاركين في تنفيذ العمليات الاستشهادية و هدم منازلهم . و على الفور ، نفذت قوات الاحتلال سلسلة من عمليات الهدم و التجريف طالت 14 منزلاً سكنياً في عدة محافظات من الضفة الغربية ،

و في اليوم التالي 2002/8/2م وقع قائد المنطقة الوسطى في جيش الاحتلال قرارات إبعاد بحق عبد الناصر عصيدة و كفاح و انتصار العجوري ، و مثلما "تعهدت" حكومته لمحكمة العدل العليا الصهيونية أعطيَ المشمولين بالقرار مهلة 12 ساعة للاعتراض على قرار الإبعاد ، و هو ما تولته إحدى المؤسسات الحقوقية ، و شهدت تلك الأيام عمليات نسفٍ و هدم لمنازل الاستشهاديين و المطلوبين بقرار من المستشار القضائي لحكومة الاحتلال .

و خلال ذلك كانت تكثف البحث عن المطلوبين ، و بتاريخ 2002/8/5م تمكنت قوات الاحتلال من الوصول إلى مخبأ علي العجوري في قرية جبع - قرب جنين ، و اغتياله .

و تم ذلك وفقاً لروايات مستقلة على النحو التالي : "في حوالي الساعة 12:30 من منتصف ليلة الإثنين الموافق 2002/8/5 ، أطلقت طائرتان مروحيتان (إسرائيليتان) صاروخي جو - أرض باتجاه منطقة حرجية تقع شرقي بلدة جبع ، إلى الجنوب من مدينة جنين ، ثم قامت بتمشيط المنطقة ، و قصفتها بالرشاشات الثقيلة . و بعد مغادرة الطائرتين سماء المنطقة ، هرع عددٌ من أهالي البلدة إلى المنطقة بحثاً عن ضحايا محتملين . و استمرت عمليات البحث حتى ساعات الفجر ، حيث عثر الأهالي على جثمانين شابين مضرجين بدمائهما . و على الفور أبلغوا إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني ، و قام طاقم الإسعاف الذي حضر إلى المكان بنقل الجثمانين إلى مستشفى د. خليل سليمان في مدينة جنين . و في وقتٍ لاحق تم التعرف على هوية الشهيدين بصعوبة بالغة ، و تبين أنهما :

- (1) الشهيد علي محمد أحمد العجوري - 23 عاماً - من مخيم عسكر الجديد ، و أصيب بشظايا صاروخ في الجزء العلوي من الجسم ، أدى إلى خروج جميع أعضائه .
- (2) الشهيد مراد سليمان زهدي مرشود - 21 عاماً - من مخيم بلاطة . أصيب بشظايا صاروخ في الجهة اليمنى من الوجه و الرقبة و الساق اليسرى ، و أربعة أعيرة نارية من النوع الثقيل في كتفيه .

و لم تتجح جهود الاحتلال بالوصول إلى نصر الدين عصيدة ، بينما كان الثلاثة المهددين بالإبعاد : ناصر الدين و كفاح و انتصار يخوضون الإجراءات الشكلية لمنع إبعادهم و كانت تطوّرات الأسابيع التالية في قضيتهم على النحو التالي :

* 2002/8/13 .. محكمة صهيونية عسكرية في مستوطنة بيت آيل قرب رام الله ، تردّ الاعتراض بمنع الإبعاد و تقرر إبعاد الثلاثة إلى غزة . و كان هناك ردود فعل مختلفة على تلك القضية من بينها ما صرّح به مصدر مسؤول في حركة حماس ، معتبراً قرار الإبعاد (يمثل اعتداءً صارخاً على حقوق الإنسان في العيش على أي بقعة من وطنه ، و تنفيذاً لسياسة العقاب الجماعي الذي تتعامل فيه سلطات الاحتلال ضد

أبناء الشعب الفلسطيني . و إن حركة المقاومة الإسلامية (حماس) إذ تُدين هذا القرار الجائر ، فإنها تدعو المجتمع الدولي بكافة مستوياته الرسمية و الشعبية إلى العمل على وقف هذه الممارسات اللاإنسانية . و تؤكد أن هذه الأساليب - رغم قسوتها و شدتها - لن تمنع الشعب الفلسطيني من الاستمرار في انتفاضته و مقاومته للاحتلال . و ستكون هذه السياسة الظالمة وبالا على الاحتلال بإذن الله" ..

***2002/9/3م** .. بدأ شهر أيلول في ذلك العام بمجزرة صهيونية في بلدة طوباس راح ضحيتها خمسة شهداء من بينهم طفلان و كان الهدف منها اغتيال أحد المطلوبين لقوات الاحتلال ، و في اليوم التالي لتلك المجزرة أعدم جنود الاحتلال أربعة من العمال الفلسطينيين بعد اقتيادهم من محجر شرق الخليل . و في اليوم الثالث من أيلول أصدرت محكمة العدل العليا الصهيونية قراراً نهائياً ، هذه المرة ، بعد وصول الإجراءات الشكلية إلى منتهاها ، بطرد كفاح و انتصار العجوري مدة عامين إلى غزة ، و في نفس الوقت ، و لأسباب شكلية على الأرجح ، منعت إبعاد عبد الناصر عصيدة شقيق نصر الدين عصيدة ، و إعادته إلى السجن . و نظر في القضية تسعة قضاة بعد الالتماس الذي قدّمته عدة جمعيات حقوقية . و هذه المرة أعلنت السلطة الفلسطينية احتجاجها على قرار الإبعاد و قال صائب عريقات وزير الحكم المحلي إن القرار خطير جداً و سابقة خطيرة و تثبت للعقوبات الجماعية ، و سندرس التوجه إلى أكثر من محفل دولي قد تكون محكمة العدل الدولية أو مجلس الأمن" .. و بالطبع لم يحدث أي شيء من ذلك .

***2002/9/4م** .. في هذا اليوم تم جلب انتصار العجوري من سجن نفي ترتسيا للنساء قرب "تل أبيب" إلى معسكر الجيش الصهيوني في بيت آيل حيث كان شقيقها كفاح قضى ليلته في إحدى زنازينه ، و سمح لهما بوداع بعض أفراد عائلتهما لعدة دقائق ، ثم تمّ تقييد أيديهما و أعينهما و وضعا في سيارات عسكرية و تم الاعتداء عليهما في الطريق ، ثم تمّ رميها قرب مستوطنة نيتساريم في قطاع غزة ، و بدءا بالسير حتى النقا مع أحد المزارعين الذي أخبرهم أن المنطقة التي يوجدان بها خطيرة للغاية و كانت سلطات الاحتلال ارتبكت فيها مجزرة قبل أيام ، و ساعدهما بالوصول إلى مكان أكثر "أماناً" في وطن كان مستباحاً من قوات الاحتلال .

و في الأسابيع التالية اعتصم كفاح و انتصار أمام مكاتب الصليب الأحمر في مدينة غزة ، و أصبح ذلك الموقع (مقرهما) شبه الدائم ، و كان مقدراً لهما أن يستقبلا فيه في أوائل شباط 2003م المعززين بوفاء و الدتھما ، التي توفيت في نابلس و لم يسمح لهما بالتوجه لإلقاء النظرة الأخيرة عليها و العودة إلى غزة كما طلبا . و وقف كفاح في خيمة أمام مكاتب الصليب الأحمر يستقبل الرجال من المعززين ، بينما وقفت شقيقته انتصار في الحديقة الخلفية لمكاتب الصليب تستقبل المعزيات" .

بعد عمليات الإبعاد تلك ، و احتجاج الأهالي في المعتقلات ، و تكثيف المطاردة كان المقاومون و رغم ظروفهم الصعبة مصممين على إسماع صوتهم ، و جاء هذه المرة من أحد رفاق نصر الدين عصيدة .

الفصل الخامس

حزن الغزلان

(1)

و استمرت عمليات البحث و التوغل و القمع و الاعتقال في قرية تِل و من عمليات التوغل المؤلمة التي تعرّضت لها القرية ، تلك التي حدثت يوم الجمعة 2002/11/8م ، و كانت تصادف الجمعة الأولى في رمضان .

كانت جموع المواطنين متوجهة ظهراً إلى مسجد القرية ، عندما فاجأهم قوات الاحتلال التي تسللت إلى القرية و فتحت النار على المواطنين المتوجهين للتعبّد ، فاستشهد الشاب أحمد عبد الفتاح رمضان . و

متلماً حدث مرات كثيرة لم تستطع قوات الاحتلال القبض على أبرز اثنين من المطلوبين لها الآن : نصر الدين عصيدة و سامي زيدان اشتية .

و بعد نحو أسبوعين ، و في سياق متصل - منفصل عن قصتنا ، تمكن الأسير نزار رمضان أحد رفاق نصر الدين عصيدة من الفرار من سجن (هشيكما) في مدينة عسقلان ، و كان تم إلقاء القبض عليه من قبل سنوات الاحتلال سابقاً و حكم بالسجن مدى الحياة مرتين لاتهامه بالمشاركة في قتل اثنين من حراس مستوطنة يتصهار عام 1998م .

و هرب مع نزار رفيقه محمد حاج صالح البالغ من العمر - 26 عاماً - من مدينة جنين و ينتمي إلى حركة حماس ، و كان قد حكم عليه بالسجن مدى الحياة إضافة إلى عشر سنوات أخرى ، و ذلك لاتهامه بأنه كان قد وضع سيارة مفخخة في سنة 1994م بالقرب من حافلة الركاب رقم 348 في مدينة العفولة .

و كان وقع عملية الهروب مؤثراً على الرأي العام الفلسطيني و الصهيوني ، فالسجن يخضع لإجراءات أمنية مشددة من كلاب حراسة و أبراج مراقبة و كاميرات و دوريات عسكرية على مدار الساعة و بدأت وسائل الإعلام الصهيونية الرسمية تبث أوصافاً للهاربين من أجل المساعدة بالقبض عليهم ، و حسب راديو الاحتلال فإن (محمد صلاح) طوله يبلغ 172 سم ، أسود الشعر ، و عيناه بنيتان و له لحية قصيرة و يلبس نظارات طبية إطارها أسود ، أما نزار رمضان فيبلغ طوله 158 سم ، متوسط البنية ، عيناه بنيتان و شعره أسود و له لحية قصيرة .

و تم تشكيل لجنة تحقيق تبحث في كيفية تمكن الأسيرين من الفرار بعد تسلق جدار السجن الذي يبلغ ارتفاعه أكثر من عشرين متراً و الوصول إلى سور السجن و تسلقه دون أن يكتشف عملية الهروب أحد . و قطع الأسيران مسافة تزيد عن عشرين متراً قفزاً ، ما بين السطح الذي قفزا منه و الجدار الذي تسلقاه .

و بذلت سلطات الاحتلال جهوداً استثنائية حتى قبضت على الأسيرين في المنطقة الصناعية في مدينة عسقلان . و تبين أن الأسيرين قطعاً قضيباً في ممر أحد أقسام السجن ، و نجحوا في الوصول إلى سقف السجن المنخفض من سقف القسم نفسه ، و ألقى الإثنان حبلاً من السقف الذي وصلا إليه ليترتب في السور و في عملية تسلق عبر الحبل نجحوا بالوصول إلى السور ، ثم قفزا عنه و لاذا بالفرار .

و في حين توقفت عملية البحث عن نزار رمضان و رفيقه فإن المطاردة و البحث عن نصر الدين عصيدة و رفاقه كانت مستمرة و مكثفة . و في مثل هذه الأجواء من المطاردة و القمع و القتل و عمليات الاغتيال و اعتقال المزيد من عائلات المطاردين ، وقع حادث له دلالاته مع إقبال عام ميلادي جديد .

(2)

بتاريخ 2003/1/1م ، أعلنت مصادر صهيونية بأن فلسطينياً قتل مساءً قرب مستوطنة قدوميم ، و قال مصدر عسكري صهيوني إن وحدة عسكرية رصدت فلسطينياً يحمل كيساً كبيراً و يقترب من المستوطنة ، و أنه بعد "التحذير المستخدم لاعتقال مشبوه ، فتح الجنود النار مما أدى إلى انفجار قوي للقفلة التي كانت مخبأة في الكيس و مقتل حاملها" . و كان هذا الإعلان الصهيوني أكثر من مريب ، و لم يكن من المناسب أخذ الرواية الصهيونية على محمل المصادقية .

و كان هناك اعتقاد بأن عملية اغتيال أو إعدام ميداني نفذت بحق الشهيد الذي لم تعرف هويته بعد ، و لم يكن من السهل معرفة ذلك ، إلا أن آخرين من رفاقه كانوا بالطبع يعرفون هوية الشهيد ، و لكنهم انتظروا لأسبابهم الخاصة و ظروفهم الصعبة مدة يومين ، قبل أن يتصل بعضهم بوسائل الإعلام ، معرفين عن أنفسهم بأنهم من كتائب الشهيد عز الدين القسام ، و بأن الشهيد هو رفيقهم سامي سمير زيدان اشتية - 24 عاماً - من قرية تل .

و ربما كان من المتصلين نصر الدين عصيدة و رفاقه الذي فقدوا واحداً منهم باستشهاد سامي زيدان ذلك المقاوم العنيد و الشجاع ، الذي ولد في قرية تل يوم 1980/10/11م . و في ظروف بالغة التعقيد تأخر

صدور بيان عن كتائب القسام ينعي الشهيد ، و لكن بعد صدوره كان فيه رواية أخرى لما حدث ، و أشار البيان إلى استشهاد الشهيد سامي "بعد معركة بطولية مع الجنود الصهاينة في منطقة وادي قانا بالقرب من مغتصبة يتصهار الصهيونية جنوب مدينة نابلس" .

و أوضح البيان "أن الشهيد كمن لدورية صهيونية و اشتبك معها في حوالي الثامنة من مساء الثلاثاء 2002/12/31 و حقق إصابات مباشرة فيها ، ثم انطلق إلى كمين آخر ليذيق العدو ألوان العذاب ، و لقد لاحقته قوات كبيرة من جيش الاحتلال مدعمة بطائرات مروحية صهيونية .. فاشتبك معهم لأكثر من ثلاث ساعات في معركة بطولية إلى أن تمكنت مروحية صهيونية من إصابته بصاروخ مباشر أدى إلى استشهاده .. و ذلك في فجر يوم الأربعاء 2003/1/1 م" .

و أضاف البيان : "من الجدير ذكره أن الشهيد له أثر بارز في العمليات البطولية النوعية و التي سنذكر تفاصيلها في بيانات قادمة" . و كان من المرجح أن من تلك العمليات عمليتي عمانوئيل المدويتين .. !

و حسب تقرير نشره المركز الفلسطيني للإعلام ، في موقعه على الإنترنت عن حياته ، فإنه نشأ في بيت متدين ، و كان من رواد المساجد منذ صغره ، و بعد إنهائه للثانوية العامة ، عمل مع والده في الأرض ..

و قال والده لمراسل المركز : "لقد فتح سامي عينيه و هو يرى الاحتلال الصهيوني .. و يرى منهم القهر و الظلم و نسف البيوت و ما يتعرض له أبناء الشعب الفلسطيني من إهانات و مآسي من الاحتلال .. فكان من الطبيعي أن يكون هناك ردة فعل ضد هذا الاحتلال .. و يكون هناك الشباب الذين يقاومون الاحتلال و ظلمه و طغيانه .. و كان ولدي سامي من هؤلاء الشباب الذين ترعرعوا على حب الوطن منذ صغره و عاشوا الانتفاضة الأولى و هم صغار في السن ، و رأوا من الظلم و القتل فيها ما رأوا .. فلم أعجب من أن أرى ابني قد أصبح مقاوماً للاحتلال كغيره من شبان المقاومة الفلسطينية الذين نعتز بهم .."

و لا نعرف على وجه اليقين متى انضم سامي إلى كتائب عز الدين القسام ، و لكننا نرجح أنه مع انطلاق انتفاضة الأقصى و مشاركته في فعاليات الجماهيرية ، قرّر الانضمام إلى تلك الكتائب .

و من المفاصل التي كان لها أثر في حياته بعد تمكّن قوات الاحتلال من اغتيال قائد كتائب القسام محمود أبو هنود ، بعد عدة عمليات اغتيال فاشلة ، و كان من الطبيعي أن تردّ الكتائب على اغتيال قائدها بعدة عمليات في العمق الصهيوني .

و من مفارقات تلك الأيام أن قامت السلطة الفلسطينية بعد تلك العمليات باعتقالات في صفوف حركة حماس و شملت تلك الاعتقالات سامي نفسه الذي وجد نفسه في شهر كانون ثاني سنة 2002م ، نزيل سجن نابلس المركزي و هو نفس السجن الذي قصفته قوات الاحتلال قبل ذلك بعدة أشهر لوجود الشهيد محمود أبو هنود فيه ، و في حين نجا أبو هنود استشهد نحو 15 من الحراس الفلسطينيين .

و من المفارقات الغريبة العجيبة أيضاً أن قوات الاحتلال قصفت السجن و مباني أخرى في نابلس خلال تلك الشهور العصبية ، و عندما بدأت قوات الاحتلال تتوغّل في المدن الفلسطينية و توجّت ذلك بعملية السور الواقفي في شهر نيسان 2002م ، وجد الشهيد سامي نفسه ، في تلك الظروف مع المقاومين من مختلف الفصائل يصدون العدوان عن نابلس ، بعد أن تركتهم السلطة الفلسطينية يواجهون مصيرهم وحدهم . و بعد تلك المعركة وجد سامي طريقه إلى الجبال ، و خطّط و شارك مع رفاقه في عملية عمانوئيل الثانية التي استشهد فيها رفيقه عاصم عصيدة .

و جاء في تقرير المركز الفلسطيني للإعلام وثيق الصلة بحركة حماس أن الشهيد سامي "مقاوم صلب عنيد .. هكذا يوصف المجاهد سامي .. يتفوق بعزمته الجبارة على قسوة ظروف المقاومة .. ممتشق بشكل دائم لسلحه الرشاش و مطارّد للجنود الصهاينة الإرهابيين الذين يقتلون أطفالنا و يشرّدون شعبنا .. مقاوم يعيش كلّ لحظة من حياته في الجهاد .. أبى أن يختبئ في منزل أو سكن مترف ، بل كانت جميع أيام مطارّدته يعيشها في الجبال يزرع العبوات الناسفة و ينصب الكمائن في الطرق الالتفافية و قرب المستوطنات" ..

و أورد مركز الإعلام رواية أخرى مختلفة ، عن الرواية الصهيونية لاستشهاد سامي تعزّز رواية كتائب القسام و ربما معتمدة عليها .. "في ليلة من ليالي المقاومة التي يحييها مجاهدنا سامي بلقائه مع الله عز و جل بدعائه و صلاته و جهاده للعدو الصهيوني عبر طلاقات رشاشه و عبواته المتفجرة ، انطلق مجاهدنا في الساعة الثامنة من مساء يوم الأربعاء 2003/1/1 ليكن لدورية صهيونية على الطريق بين مستوطنتي عمانوئيل و يتصهار قرب منطقة وادي قانا ، و بعد أن أحكم الكمين و أصبح جاهزاً ينتظر ، فإذا بالفريسة تقترب .. دورية لحرس الحدود الصهيانية مليئة بالجنود المدجّجين بالسلاح .. و مجاهد واحد بانتظارهم .. و في اللحظة المناسبة انقضّ الأسد القسامي عليهم ضارباً عبواته الناسفة و مطلقاً صليبات الرصاص من رشاش الكلاشنكوف الذي كان بحوزته حتى أصاب جميع من في الدورية الصهيونية بين قتيل و جريح .

و أضاف تقرير المركز "وبعد أن تأكد مجاهدنا القسامي من تحقيق إصابات مباشرة في تلك الدورية انطلق من مكانه إلى كمين آخر ، فقد قرّر أن لا يعود هذه المرة إلا شهيداً إلى جنات النعيم .. حيث وصلت للمكان قوات معززة من الجنود الصهيانية ترافقهم طائرة عمودية من نوع أباتشي حيث لم يستطع الجنود الصهيانية على مواجهة ذلك الأسد القسامي الذي إن زار يزلزل الأرض تحت أقدامهم و يشعلها لهيباً" .

و حسب رواية المركز أيضاً فإنه "دارت اشتباكات عنيفة استمرت أكثر من ساعتين بين مجاهدنا الأبّي و الجنود الصهيانية الجبناء الذين تراجعوا خوفاً و جنباً من لقائه ، حيث لاحقته طائرة الأباتشي الهجومية و التي تستخدم في الحروب القاسية حتى أصابه الجبن الصهيوني و غدره بصاروخ في جنبه الأيمن بشكل مباشر ، كما تم إصابته بطلقات من العيار الثقيل الذي اخترق جسده الطاهر .. فلقى سامي ربه شهيداً مقبلاً غير مدبر .." .

و ما حدث بعد استشهاد سامي ، تتفق عليه مختلف الروايات ، فبعد استشهاد لم يقم جنود الاحتلال بأخذ جثمانه ، لأسباب غير معروفة ، و لكن من المؤكد أنهم تعرفوا على هويته و عرفوا أنه المطارّد الذي يبحثون عنه منذ أشهر ، و ربما تركوه لتنتشّوه جثته أو تأكله الحيوانات البرية ، أو تركوه ليكون كميناً لرفاقه الذين توقع المحتلون أن يخرجوا من مخابئهم في الجبال ليأخذوه .

و بعد عشرة أيام من استشهاد مرّ به أحد رعاة الأغنام من قرية عوريف في المنطقة التي حصل فيها الحادث ، و تذكر أنباء عن الاشتباك المسلح ، فاتصل بوالد الشهيد في قرية تل الذي يتذكر تلك الأيام "بعد عشرة أيام من العملية تفاجأنا بشكل كبير في العائلة عندما اتصل بنا راعي الأغنام من أهل قرية عوريف و أخبرنا بأنه وجد جثمان منقذ العملية في وادي قانا .. و لم تكن نصدّق الخبر حيث ظننا أن الجيش قد أخذ الجثمان معهم كما يفعل دائماً .. و أن الذي يتحدث عنه راعي الأغنام إنما هو شهيد آخر .. و لكنه أكد أنه لم يحصل شيء خلال الأيام السابقة بعد معركة سامي مع الجنود الصهيانية .." ، و يتابع والد سامي قائلاً للمركز الفلسطيني للإعلام : "فأخذنا نساءً عن أوصاف الشهيد الذي رآه راعي الأغنام حتى دهشنا عندما أخذ يذكر أوصاف ولدي سامي عندها بدأنا نشكّ في إمكانية أن الجثمان هو جثمان سامي .. لقد كان وقع الخبر علينا كبيراً و لكن الله عز و جلّ صبرنا و احتسبنا ذلك أيضاً عند الله عز و جل .." .

و يكمل والد الشهيد سامي القصة : "و لم نستطع أن نذهب في نفس الوقت الذي علمنا به عن وجود جثمان سامي في الجبال و ذلك لبعد المنطقة و خطورتها .. و في صباح اليوم التالي خرجنا للمنطقة و التي هي من أصعب المناطق و أكثرها وعورة ، و كان أهالي قرية عوريف قد سبقونا إليها و وجدناهم بانتظارنا ، حيث كانت المفاجأة الكبرى .. الأمر الأول أن الرجال الذين وصلوا للمكان أقسموا لنا أنهم رأوا غزلاً بالقرب من جثمان الشهيد واقفاً إلى جانبه و لم يتركه إلا عندما لم يكن بيننا و بينه سوى أمتار قليلة ، حيث كان يقف كالحارس على الجثمان .. ، و الأمر الأكثر مفاجأة هو أن جثمان الشهيد لم يتغير فيه شيء قدمائه كما هي و جراحه كما هي و رائحته الطيبة كما هي .. حتى أننا رأينا بأمر أعيننا أن بعض جراحه لا زالت تنزف كأنه استشهد منذ ساعتين .. حتى لون بشرته لم يتغير .. كان كأنه نائم .. !! فحمدت الله عز و جل على هذه الكرامة التي كرّمني بها بعد كرامة استشهاد ولدي سامي .." .

نقل جثمان الشهيد إلى قرية عوريف التي شارك أهلها في جنازة رمزية للبطل سامي و طافوا بجثمانه القرية بعد أن لقوها بالأعلام الخضراء ، ثم تم نقل الجثمان إلى قرية تل ، و كان أهل القرية في انتظار ابنهم الذي خرج ذات يوم مقاوماً و عاد شهيداً .

و مثلما يليق بشهيد مقاوم بطل ، تم موازاة الشهيد سامي الثرى في وداع كبير . و غاب سامي أحد "مجاهدي كتائب القسام السريين في كتبية الاقتحام و الرصد الاستخباري .." كما ذكر رفاقه ، الذين بقوا في الجبال ينتظرون النزول لإكمال المسيرة و منهم القائد نصر الدين عسيده ، الذي تحول إلى أسطورة حقيقية .

نوع من الخاتمة :

لم يكن ما فعله هؤلاء المقاومون ، في الواقع ، سوى ما فعله أي شعب آخر وقع تحت نير الاحتلال من قبل ، أو ما يفترض أن يفعله أي شعب يقع تحت نير الاحتلال ، أي احتلال .

و لم يكن ما فعله هؤلاء ، أيضاً ، سوى ما فعلته من قبلهم أجيال متلاحقة من الفلسطينيين ، لم تنقصهم الشجاعة و الإقدام ، و إن افتقدوا لقيادات ليست فقط يجب أن تكون شجاعة و مقدامة و لكن أيضاً لم تكن على قدر مسؤوليتها التاريخية ، في قضية شديدة التعقيد و عدو قوي و خطر يشكل قاعدة متقدمة للغرب الاستعماري .

و ربما يعترض أحد على هذا التعميم ، و هو ما يمكن قبوله في ظروف أخرى ، غير الظروف الفلسطينية ، فالأمور - كما يقول أهل السياسة - بخواتيمها .

و جاء هؤلاء ، في ظرف أراد له أن يكون (خاتمة) القضية ، فحملوا السلاح و خرجوا للجبال في أوضاع لم تكن فيها هذه الجبال لوجستياً قادرة على الصمود أمام التكنولوجيا المتقدمة ، و عربياً و إسلامياً كانت فيه مدنها نائمة أو خائنة ، و مستعدة أن تقدم نفسها طواعية للصهيونية في ظلّ تسيّد الإمبريالية الأمريكية و سعيها الحثيث لتسلم زمام مقادير العالم .

و في مثل هذا الظرف الحرج قال هؤلاء : لا ، و هم يعرفون معنى أن يقولوا تلك الكلمة و تبعاتها ، التي تخلت عنها دول و قوى و جماعات و منها جماعات فلسطينية ، باعت نفسها و سارت في ركب الإمبريالية الأمريكية .

و في ظلّ هذا المشهد الدرامي حيث عادة ما يصقّ النظارة للبطل الذي يستطيع أن يفعل ما لا يستطيعون و يقول ما يخافون قوله ، كان الأمر مختلفاً خصوصاً في أوساط النخب السياسية و الثقافية ، التي كانت تسارع لاستنكار ما يقوم به هؤلاء ، و ما كان يؤلم أن من بين أفراد هذه النخب فلسطينيين و عرب و متقنين أجانب ساندوا ثورات مختلفة لشعوب العالم أما عندما يتعلّق الأمر بالشعب الفلسطيني فالأمر مختلف .

و أصبحت المقاومة لدى هؤلاء تهوَّراً و النضال إحباطاً و الاستشهاد انتحاراً ، و غاب عن بالهم ما يقوم به هؤلاء في التصديّ لأكبر قوتين (تحالف الإمبريالية و الصهيونية) تهددان السلم ليس فقط في هذه البقعة من الكرة الأرضية المسماة فلسطين أو العالم العربي ، بل السلم في العالم أجمع .

في مثل هذا الظرف عرفت معنى أن يأتي يوم ينسى فيه من حاول أن يقول لا ، أو يأتي يوم تدرّج فيه أسماء هؤلاء في قوائم الإرهابيين ، فلذلك كتبت ما اعتبره قليلاً ، و لا يساوي ، حقيقة ، قطرة دم سقطت من أي منهم . و أمل أن يكون ما كتبتّه تكفيراً عن عجز القلم ، و هو السلاح الوحيد الذي أُنقن حملته ، عن القول كم كان هؤلاء أكثر من رائعين !..

و تبقى ملاحظات لا بدّ من الإشارة إليها :

*قصة خلية المناضلين التي أطلقت عليها مجازاً اسم خلية (تل) على اسم القرية الواقعة جنوب غرب نابلس و التي خرج منها معظمهم ، لا يمكن فصلها عن مشاهد الكفاح و الدم المسفوح في الأرض المقدسة في انتفاضة الأقصى و قبلها خلال السنوات التي أعقبت اتفاق أوسلو عام 1993م و إن لم أكن تطرقت إلى تلك الأحداث أو الأجواء بالتفصيل فلأنني افترضت معيشة القاري لها أو على الأقل وجود فكرة لديه عنها ، و لكي لا أخرج عن سياق قصة واحدة محدّدة من قصص البطولة في الأرض المقدسة ، و على كلّ أدرجت اقتباسات كاملة كبعض البيانات لوضع القارئ في تلك الأجواء .

*تبقى هذه القصة ناقصة في غياب أية رواية من أصحابها ، الذي قضوا شهداء أو ما زالوا مطاردين عن أعين سلطات الاحتلال .

*لا بد من الإشارة ، بامتنان ، إلى موقع المركز الفلسطيني للإعلام على شبكة الإنترنت الذي كان له دوره المقاوم بطريقته، و وقر مراسلوه معلومات و صوراً و تقارير عن انتفاضة الأقصى ، و في قصتنا هذه كانت خير معين لي ، و اعتمدت في نشر الصور التي يتضمنها الكتاب على أرشيف المركز من الصور .